
@ketab_n
Follow Me
31.12.2015
غسان كنفاني
القبعة والنبي

مسرحية

غسّان كنفاني

القبعة والنبي

منشورات الرمال



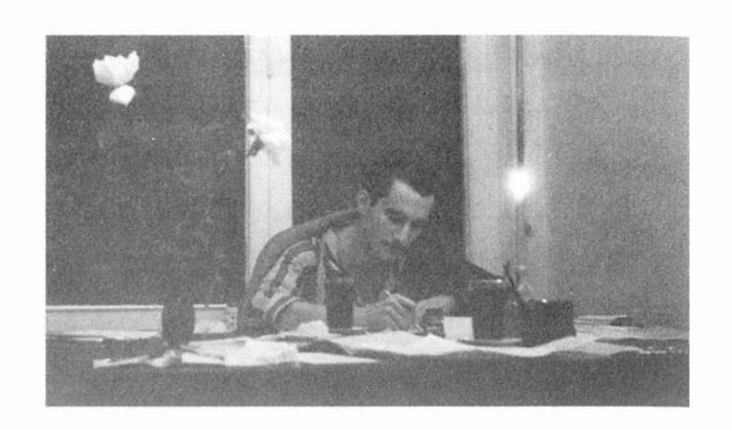
مؤسسة غسّان كنفاني الثقافية

دار منشورات الرمال
قبرص
www.rimalbooks.com

الطبعة الأولى 2013
الطبعة الثانية 2014

ISBN 978-9963-610-84-6

نشرت هذه المسرحية في طبعتها الأولى سنة 1981
صورة غسان كنفاني تصوير آني كنفاني
تصميم الغلاف ميدا فريجي مقدسي
الخطاط: شوقي يوسف
الغلاف لوحة لغسان كنفاني



يُعتبر غسان كنفاني أحد أشهر الكتّاب والصحافيين العرب في عصرنا. فقد كانت أعماله الأدبية من روايات وقصص قصيرة متجذرة في عمق الثقافة العربية والفلسطينية، ومصدر وحيٍ لجيلٍ كامل في حياته وبعد استشهاده بالكلمة والفعل.

ولد في عكا، شمال فلسطين، في التاسع من نيسان/أبريل ١٩٣٦، وعاش في يافا حتى أيار/مايو ١٩٤٨ حين أجبر، بسبب الحرب التي أسفرت عن إنشاء إسرائيل، على مغادرة وطنه الأم واللجوء مع عائلته في بادئ الأمر إلى لبنان، ثم إلى سوريا. عاش وعمل في دمشق ثم في الكويت، وبعد ذلك في بيروت منذ سنة ١٩٦٠. وفي الثامن من تموز/يوليو ١٩٧٢ استشهد في بيروت مع ابنة أخته

لميس في انفجار سيارة مفخخة على أيدي عملاء إسرائيليين.

أصدر غسان حتى تاريخ وفاته المبكر ثمانية عشر كتاباً، وكتب مئات المقالات في الثقافة والسياسة وكفاح الشعب الفلسطيني. في أعقاب اغتياله تمّ إعادة نشر جميع مؤلفاته بالعربية، في طبعات عديدة. كذلك جمعت رواياته وقصصه القصيرة ومسرحياته ومقالاته ونشرت في مجلدات، وترجم العديد من أعماله الأدبية إلى عشرين لغة. كما دخل بعض أعماله في مناهج المدارس والجامعات، وتمّ إخراج بعضها أعمالاً مسرحية وبرامج إذاعية عربية وأجنبية عدة، واثنتان من رواياته تحولتا إلى فيلمين سينمائيين. وما زالت أعماله التي كتبها في الفترة ١٩٥٦-١٩٧٢ تحظى اليوم بأهمية متزايدة.

ملاحظات المؤلف

تترك هـذه المسرحية للمخرج حرية مطلقة في التصرف، والملاحظات التالية ينبغي أن تُحمل على محمل الاقتراحات، بما في ذلك دمج الفصول الثلاثة في فصل واحد.

١- المسرح:

طاولتان متشابهتان يفصل بينهما حاجز حديدي يوحي بقفص الاتهام، على أنه ينبغي أن لا يكون هذا الحاجز بارزاً بطريقة تجتذب النظر للتركيز عليه. القفص هذا مكون من ضلعين، الضلع الذي يفصل بين الطاولتين، والضلع الذي يفصل بين طاولة المتهم والجمهور، وهذا الضلع بالذات قابل للحركة، بحيث يدور على مفصلة مربوطة إلى الضلع الآخر بسهولة، وبوسع حركة من هذا النوع، ببساطة، أن تجعل طاولة المحكمة وكأنها داخل القفص والطاولة الأخرى (طاولة المتهم) طليقة.

نصف المسرح الذي تشغله طاولة المحكمة يوحي بالجدية والعراء، لا ديكور ولا أي شيء يوحي بميزات خاصة. الطاولة عارية وفي أحد دروجها يوجد حبل.

نصف المسرح الآخر، الذي تشغله طاولة المتهم، له شخصية المنزل المتواضع، في صدره باب ينفتح على شرفة هي في الوقت ذاته المدخل إلى «المنزل» - حاجز الشرفة يبدو بوضوح للمشاهد حين ينفتح الباب.

٢- الأشخاص:

المتهم شاب في ملابس عادية. يكون في معظم المسرحية دون قميص، ويبدو بقميصه الداخلي طبيعياً للغاية.

رقم ١ ورقم ٢ شخصان متشابهان، أنيقان دون إفراط، ودون ما يوحي بالرسمية. صوتاهما - بصفة عامة - حياديان وميالان للتقريرية.

السيدة: شابة جميلة وأنيقة ووالدتها مبهرجة قليلاً ومتصابية وذات مظهر عدواني إلى حد ما.

ساعي البريد يلبس ملابس عادية ويتميز بقبعة رسمية فقط، ولا يحمل حقيبة، وشديد الفضول.

٣- الشيء:

محور أساسي، ولذلك فتصميمه ينبغي أن يخضع لشروط لا مفر منها، أولها أن لا يكون، بأي حال من الأحوال، معدنياً، وألا يمت

بأية صلة لشكل يشبه الإنسان أو الحيوان أو النبات الشائع. لونه أسود وبالوسع إدخال اللون البنفسجي. ذو مظهر أقرب للقماش أو المطاط، وتكوينه يتميز بفروع مثل أوراق الشجر العريضة فوق قبة - سوف يستعمل فيما بعد كقبعة مبتكرة - أما تحريكه فثمة وسائل عديدة لذلك، أبسطها كما يبدو أن يحرك عبر ثقب في الطاولة التي لن يبرحها تدخل منها يد لرجل يجلس تحتها ولا يظهر على الإطلاق، أما الفروع فيمكن أن يعتمد في تحريكها على اهتزاز لنوابض تكون داخلها.

وفي كل الحالات: لا ينبغي أن يوحي «الشيء» بأي علاقة مع أي تكوين شائع، كما لا ينبغي أن يوحي بأي شيء فكاهي أو مضحك.

وبالنسبة لصوته فإن أقرب التصورات هو أن «ينطق» بواسطة مسجل. الصوت ينبغي أن يكون واضحاً للغاية ولكنه غير طبيعي تماماً، بوسع الرجل الذي سيتولى تحريك الشيء الإشراف على المسجل أيضاً.

٤- الشرطي:

استعملت هذه الكلمة في وصف الرجل الذي سيكون عليه، دون النطق بكلمة واحدة، تحريك الحاجز بين الفينة والأخرى. لا

ملابس رسمية ولكن صرامة الرجل الرسمي المكلف. ولا تعاطف، وغالباً لا يلفت نظر أي من أشخاص المسرحية ولا يقاطع أحداثها وحوار أبطالها. من الأفضل أن يجلس هذا «الشرطي» في مقاعد المتفرجين الأولى ويتحرك منها إلى المسرح ويعود إليها، وكذلك فإن وجوده على طرف المسرح الأقصى، الأقرب للجمهور، ممكن بشرط ألا يلفت وجوده نظر أحد إلا حين يتحرك. ينبغي أن ينسى تماماً حين لا يكون ثمة ما يفعله، ولكنه أبداً لا يدخل أو يخرج من الكواليس.

٥- الضوء:

سيتزايد دور الضوء بإطراد كلما اقتربت المسرحية من نهايتها، ولا ضرورة هنا لملاحظات أكثر من تلك التي سترد في السياق فيما عدا الإشارة إلى أن تركيز الضوء على أحد نصفي المسرح ينبغي ألا يخفي تماماً النصف الآخر، ومن الضروري أن تظل أشكال الأشخاص في النصف المعتم (سيلويت) واضحة إلى حد ما.

على أن تصرّف مخرج يلتقط المعنى الأساسي للمسرحية يظل من شأنه إغناء المسرحية.

المشهد الأول

رقم١: (وكأنه يكمل حديثاً) أما وقد انتهينا من المحاكمة فسأصدر الحكم الآن. قف كي تسمعه كما ينبغي.

المتهم: (دون اهتمام ولكن بقليل من الدهشة) تصدر حكمك؟ انتهينا من المحاكمة؟ (يقف) ولكننا يا سيدي لم نبدأ بعد!

رقم ١: (مخاطباً رقم ٢) أسمعت ما قال؟ يقول إننا لم نبدأ بعد.

رقم ٢: لننته من الموضوع بسرعة.. دعنا نشنقه هنا والآن.. أليس هذا هو الحكم الذي اتفقنا عليه؟ (يخرج من درج الطاولة حبلاً ويضعه على الطاولة).

المتهم: (يدور حول الطاولة ويمسك الحاجز بكلتا كفيه) أيها السادة دعوني أذكركم بأننا لم نبدأ! لقد قبض عليّ أمس فقط ولم يقابلني أحد طوال الليل، ثم جيء بي إلى هنا، وكنت أعتقد أننا نجتمع للتعارف.

رقم ١: أيها القاتل.

رقم ٢: قاتل ووقح أيضاً.

رقم١: قاتل رهيب (مشيراً إلى الشيء الأسود أمامه) والجثة ما تزال أمامه وقد بدأ ينكر حتى قبل أن ندفنها.

رقم ٢: .. حتى قبل أن يجف دمها..

المتهم: دمها؟

رقم١: لننسَ موضوع الدم (ملتفتاً إلى رقم ٢) الحقيقة أنه لا يوجد دم.

رقم ٢: قتلها خنقاً.

المتهم: خنقاً؟ إنه شيء لا يستعمل الهواء.

رقم ١: قتلته.. وهذا يكفي.

المتهم: قتلته أم قتلتها؟ يا سيدي! أنا أقبل حكمكم لو تقررون إذا كان هذا الشيء هو أو هي.

رقم ١: هذه مسألة لا تخص القانون. لا تخرجنا عن الموضوع. لقد ارتكبت جريمة قتل وهذا يكفي.

المتهم: قتل من؟

رقم ١: قتل هذا (مشيراً إلى الشيء الأسود).

المتهم: انظر كيف تتهرب من الموضوع! إنني أسألك (يعلو

صوته ويأخذ حالة الهجوم) هل تسمع؟ إنني أسألك: ما هو هذا الذي قتلته.

(يتقدم «الشرطي» بهدوء ويحرك ضلع الحاجز المواجه للجمهور وينقله على محوره إلى الجهة المقابلة فيبدو القاضيان الآن في القفص والمتهم دونه).

رقم ١: (مخاطباً رقم ٢) قل له ما هو هذا.

رقم ٢: قل له أنت.

المتهم: إنه شيء لا يوجد فيه دم. لا يتنفس. لا يأكل. ليس من المعروف إذا كان ذكراً أم أنثى.. لقد تفحصته بنفسي، ليس فيه شيء يمكن أن نسميه عضواً تناسلياً.. فكيف يمكن قتله؟

رقم١: ولكنه كان يحكي يا سيدي.

رقم ٢: وكان يشرب أيضاً.

المتهم: إن الأسطوانة تحكي، وشجرة الصبار تشرب - هذا لا يكفي.. هل لديكم إثباتات أخرى؟

رقم ١: في الواقع لا.. ولكن هذا لا ينهي الموضوع. قد يكون مخلوقاً عجيباً.. وعلى أي حال أنت قتلته، وقد قلت ذلك بنفسك للسيدة.

المتهم: هل ادعى أحد علي؟

رقم ٢: ليس حتى الآن.. ولكن معلوماتنا تقول إن له أخاً جاء معه ثم اختفى، وقد يظهر يا سيدي في أية لحظة ويطالب بدم أخيه..

المتهم: لا يوجد دم.

رقم ٢: يطالب بحياته إذن.

المتهم: إن الذي لا يأكل ولا يتنفس ولا يضاجع امرأة لا يمكن أن يكون شيئاً حياً.

رقم ٢: يطالب به.

المتهم: يطالب به أو بها؟

رقم ١: الواقع يا سيدي أن الموضوع موضوع أخلاقي في الدرجة الأولى، لنفترض أن أخاه جاء ذات يوم وطالب به.. فماذا نقول له؟

رقم ٢: نعم، ماذا نقول له؟ إنها مسألة لا تهم هذا الوطن فقط، ولكنها تهم العالم بأسره.

رقم ١: تهم الكون كله في الواقع.

رقم ٢: (ينظر بحسرة إلى الشيء الأسود) لقد جاء المسكين من كوكب آخر فقتلته أنت!

المتهم: (يبكي) أنا أكثر حزناً عليه منكم!

(يتقدم الشرطي فينقل الحاجز فيصبح المتهم في القفص من

جديد)

رقم ١: (بصوت عال) إذن لماذا قتلته أيها المجرم؟

رقم ٢: أيها المجرم.

المتهم: لقد مات وحده.

رقم ١: ولكن أنت السبب في ذلك.. اعترف.

رقم ٢: اعترف فوراً (يرفع الحبل ويلوح به).

المتهم: إنني أرفض هذه المحاكمة.. صحيح أنني حزين (يبكي) ولكن هذا لا يعني أنني القاتل... (ينتعش) ثم من هذا الذي قتل؟ ما هو اسمه أو اسمها؟ كيف قتل؟ تصوروا لو أنكما قررتما قتل كل حزين في هذا العالم.. لن يبقى غيركما. ثم ستحزنان أنتما لأنكما ستكونان عندئذ وحدكما، وسيقتل أحدكما الآخر.

رقم ١: هذا صحيح.. ولكن أمامنا جريمة ويجب أن ننتهي منها.. إن القوانين قادرة على تغطية كل شيء..

المتهم: ولكنكما لم تنظرا في القضية.. لم تسمعا الشهود.. لم تتركاني أدافع عن نفسي..

رقم ١: إن الجريمة واضحة ليست بحاجة إلى إضاعة الوقت.. لم يعرف هذا الشيء أحد غيرك.. فمن إذن يقتله؟ كيف يمكن أن يقتل إنسان ما شخصاً لا يعرفه؟

رقم ٢: (للمتهم) لقد أحرجك هذه المرة ووضعك في الزاوية.. لماذا لا تجيب؟

المتهم: إننا في الواقع نقتل الذين لا نعرفهم.

رقم ١: (يقهقه) لقد أوقعناك في الفخ أيها القاتل.. لقد ضحكنا عليك وسحبنا منك الاعتراف الكامل ربما لأنك غير خبير في هذا الموضوع، فهذه أول جريمة ترتكبها في حياتك وأنت لم تكن قاضياً في حياتك ولا مرة واحدة.. وهكذا استطعنا استدراجك بسهولة.. كنت تقول قبل قليل إنك لا تعرف هذا الشيء. لا تعرف اسمه ولا إذا كان شخصاً أو شيئاً ولا من هو، ولا إذا كان ذكراً أم أنثى، أي إنك لم تكن تعرفه.. ولذلك بالذات قتلته.

رقم ٢: (مبتسماً) ذلك لأننا – كما قلت أنت بنفسك – إنما نقتل الذين لا نعرفهم.

رقم ١: إن القانون ضدك. يجب أن تعترف بذلك.

المتهم: أعترف.. ولكن يجب أن تستمعا إلي..

رقم ١: باسم أي شيء يجب أن نستمع إليك؟ باسم القانون؟

المتهم: لا.. باسم الفضول أيها السادة. (يقوم من مكانه ويتجه إلى الحاجز)

رقم ١: الفضول؟

رقم ٢: (ينظر بتواطؤ إلى رقم ١) إن وجهة نظره صحيحة.. باسم الفضول.

رقم ١: إنني إذن أسمح لك بالكلام باسم الفضول.. ولكنني سأنبهك مسبقاً إلى أن هذا لن يغير شيئاً من الحكم.. إن الفضول شيء رائع ولكنه غير قانوني.

(يعود المتهم إلى مقعده ببطء، وفي اللحظة ذاتها تصعد «السيدة» درج الشرفة وتبدو عبر الباب المفتوح متجهة نحو المتهم الذي يصل إلى كرسيه ويجلس عليه باسترخاء - يخفت الضوء الموجه على القاضيين حتى يبدوان شخصين غامضين - تدخل السيدة، بشيء من الغضب)

السيدة: (ترمي حقيبة يدها على الطاولة وكذلك قفازيها وتبدأ بالمشي عبر الغرفة بغضب، ثم تقف وتنظر نحوه) يبدو أن علينا أن نستسلم أخيراً. وذلك بسبب جبنك وجبني معاً، فدعنا نسوّي المسألة بهدوء؟

المتهم: أية مسألة؟ مسألة الجنين؟ مسألة الدين؟ مسألة المال؟ مسألة أمك؟

السيدة: كل هذه المسائل.

المتهم: لنبدأ بمسألة الجنين. يجب أن يموت بالطبع.

السيدة: نقتله بالمناصفة: مئة ليرة منك ومئة ليرة مني.

المتهم: ليس لدي مئة قرش أشتري بها رغيفاً..

السيدة: والحل؟

المتهم: أقذف بك عن الدرج، أو نتزوج.

السيدة: الزواج مستحيل.. لأن..

المتهم: لأنني لا أستطيع أن أعيل قطة، ولأنني لا أريد أن أستبدل ديانتي كما تستبدلين معطفك، ولأن الحب وحده لا يستطيع مهما بلغت حرارته أن يخبز رغيفاً.. إن أمك رائعة في اكتشاف النواقص.

السيدة: أنت في كل مرة تقول هذه الأشياء ذاتها.

المتهم: أنت في كل مرة تقولين هذه الأشياء ذاتها.

السيدة: (بلطف مفتعل) قل شيئاً جديداً هذه المرة فقط يا حبيبي..

المتهم: (يرق)! لنتزوج! سأخطفك ونطير ويرضخ الجميع.. إن العالم واسع ومليء بالفرص.

السيدة: مليء بالفرص! هل تستطيع أن تقول لي ما الذي قضى عليك إلا هذا الهراء؟ أنت تنتظر أن يسقط عليك من السقف عمل مثلما تُقدم الكعكة للأطفال.. إن العالم صغير.. إنه أمي وغرفتك

ومئتي ليرة.. هذا هو العالم.

المتهم: إنهم يحاولون الهبوط على القمر أيتها الجميلة الغبية.

السيدة: ستكون أكثر سعادة لو استطعت أن تهبط السلم، وتجرؤ على المرور من أمام دكان اللحام. .لقد سألني عنك الآن.

المتهم: وإذن؟

(يضيء النور فجأة نصف الغرفة الآخر حيث يجلس القاضيان. ولكن السيدة تواصل التصرف وكأنها غير شاعرة بهذا الذي طرأ)

رقم ١: قل لي.. هل قتلت الجنين؟

المتهم: (يلتفت إليه ببرود) كل الذي يهمك هو أن تصطاد لي تهمة جديدة.. لماذا لا تبحث معي عن حل لهذه القصة التعيسة؟

رقم ٢: إنه في مأزق حقاً، دعنا نرَ كيف سيتملص.

رقم ١: كيف انتهى بك الأمر إذن؟

المتهم: (فيما يتكلم تكون السيدة، التي تبدو في اللحظة ذاتها تتكلم بغضب ولكن دون صوت، تلم حقيبتها وقفازيها وتخرج من الغرفة بحيث تختفي وراء حاجز الشرفة في اللحظة التي ينتهي فيها هو من الكلام) لقد تعلقت المشكلة هنا. مثلها كل يوم. غضبت وصرخت وشتمت وازدادت كراهية لي. حسناً لنقل أن حبها لي تناقص عن ذي قبل، مثل كل يوم. أيها السادة، لقد أحببتها حقاً..

ولكن لم يكن باليد حيلة. أعتقد إنها قصة تحدث كل يوم مع كل شخص.. ولكن هل يعني ذلك أنها غير مهمة؟ انظروا كيف صارت حالتي! كنت أشعر أنني أفقد آخر شيء لي في العالم.. يا إلهي كم صرت تعيساً! (ينظر صوب الباب، حيث اختفت السيدة)

رقم ٢: (مخاطباً رقم ١) لنكن حذرين.. إنه يحاول أن يخرجنا عن الموضوع، إنه يستدر دموعنا ليخفي كفيه الملوثتين.

رقم١: ليستا ملوثتين في الحقيقة. تذكر. لا يوجد دم (متجهاً إلى المتهم) والآن.. انسَ ذلك كله.. نريدك أن تحكي عن الجريمة.

المتهم: (بانكسار) هذه هي الجريمة أيها السادة.. لقد هجرتني السيدة.. هل هناك ما هو أكثر رعباً في حياة إنسان كان يخبئ الحب في جيبه كسلاح أخير للدفاع عن نفسه؟

رقم ١: للدفاع عن نفسك ضد من؟ هل كان ثمة من يتهددك؟

المتهم: كل الناس. كل شيء. صاحب البيت والخباز واللحام والطبيب. الغربة والوحشة والوحدة. المرض والشقاء. الشقاء الذي لا ينتهي وفرص السعادة التي لا نستطيع أن نملأها. العمل والبطالة. الانتظار والوصول. الانكسار. الفشل. طعم الانتصار التافه. القلق. نداء الرحيل الذي لا يستجاب. الخيبة. غياب الشمس وغياب الصديق وغياب الدهشة. الموت.. يا إلهي! أن نراه قريباً إلى هذا

الحد وأن ننتظره ليل نهار..

رقم ١: (صائحاً) كفى! (يلتفت إلى رقم ٢) هل سجلت ما قال؟

رقم ٢: سجلته اختصاراً.. إنه يقصد كل شيء.

رقم ١: حسناً، والآن اكمل.

المتهم: أن تصحو فتجد أنك لم تفعل شيئاً، وأن ليس ثمة ما تستطيع أن تفعله، أن تتذكر فجأة أن لحظة ما في الماضي كانت في وقتها كل شيء بالنسبة لك وأنها الآن مثل معلبات اللحم المفرغة والمقلوبة على قفاها.. أن..

رقم١: كفى! ..إنك توشك أن تبكينا.

المتهم: حسناً.. هذا كان حالي عشية مقدمه (مشيراً إلى الشيء الأسود أمامه).

رقم ١: لقد بدأت القصة الآن، انتبه.

المتهم: (يتمدد في مقعده، فيما يغيم الضوء عن طاولة القاضيين) كنت نائماً أيها السادة. مثلما تنامون جميعاً. لا مثلما ينام رجل مثلي فقط، لقد سمعت صوتاً ضئيلاً على الشرفة فحسبت أنني أحلم.. ولكن الصوت تكرر. كان مثل استغاثة صغيرة مجهولة.. ترددت كثيراً، ثم قمت..

(يقوم ببطء، يشعل ضوءاً ويتجه نحو باب الشرفة - المدخل،

ينظر إلى الخارج بحذر، ثم يهم بالعودة ولكنه يقف منصتاً بانتباه شديد - نصف متشنج. حركة مجهولة صغيرة تسمع في الخارج. يعود ببطء ويختفي وراء الباب، وبعد لحظة يعود. ذراعاه في حركة من يحمل شيئاً. يتجه إلى الطاولة ويضع «الشيء» الذي يحمله فوق الشيء الأسود الموجود أصلاً هناك بحيث يبدو وكأنه وضعه الآن. يتفحصه بدقة ويهز رأسه محتاراً، ثم يلتفت إلى الناحية التي يجلس فيها القاضيان)

.. كان منشوراً على الحاجز، كما تقع عليه كل يوم قطعة قماش معلقة على شرفة الجيران..

(ينتهي من التفحص ويعود بغير اكتراث إلى مقعده ليسترخي، وفجأة ينبثق الصوت: رفيعاً معدنياً وبارداً. باختصار يوحي بما هو غير إنساني ولكن دون عدوانية)

الشيء: ابعد هذا الشيء عني لأعرف كيف أراك.

المتهم: (ينتفض ويبربر ويتراجع، ثم يتقدم بحذر)

الشيء: قلت لك ابعد هذا الشيء (يتحرك ببطء وكسل).

المتهم: أنت؟

الشيء: ستقتلني أيها الخائف.. ابعد هذا الشيء.

المتهم: (دون إرادة) ما هو؟

الشيء: لست أدري.. إنني لا أستطيع أن أراك.

المتهم: الضوء؟

الشيء: ليكن له هذا الاسم إذا كان ذلك ينهي المشكلة.

المتهم: (يتجه إلى الضوء الإضافي ليطفئه ولكنه يتوقف فجأة في نصف الطريق - ينظر حواليه ثم يخلع قميصه بسرعة ويرتد نحو «الشيء» ويغطيه بالقميص وينهال عليه لكماً فيما ينظر حواليه مفتشاً عن أداة أكثر فتكاً.. مصدراً أصواتاً غاضبة وغامضة)

(تضيء طاولة المحكمة فجأة.. ويقف رقم ١ منحنياً فوق الطاولة ويصرخ)

رقم ١: تكاد تقتله أيها المجرم! كف عن ضربه! ألا تسمع؟ إني آمرك باسم القانون أن تتوقف.

رقم ٢: (بهدوء) وإلا أنزلنا بك أقصى العقوبات.

رقم ١: إني آمرك أن تكف عن لكمه.

(يتوقف المتهم عن ضرب «الشيء» ولكنه يواصل الإمساك به بإحكام. ويلتفت صوب المحكمة)

المتهم: أتعتقد أنني أنا الذي أضربه أيها القاضي؟

رقم ١: (يعود فيجلس) لقد رأيتك بعيني تفعل ذلك.. وها أنتذا تنكر بكل صفاقة (ملتفتاً إلى رقم٢) ألم نره بأعيننا يضرب ذلك

الشيء المسكين دون سبب؟

المتهم: من هنا يبدأ الخطأ.. أجل! انظروا كيف تتبدل الأمور ويتهم البريء! أيها السادة لم أكن أنا الذي ضربته!

رقم ١: (متهكماً) من الذي كان يضربه إذن؟

المتهم: أنتم! (صارخاً) أنتم جميعاً أيها القتلة!

(يتقدم الشرطي فيدير الحاجز الحديدي المواجه للجمهور، يقوم بهذه الحركة دون أن ينظر إليه أحد ودون أن يتوقف سياق الحوار. يصير القاضيان الآن داخل القفص وتتبدل بالتالي لهجات الحوار).

المتهم: أنتم! أجل! أنتم الذين ضربتموه ذلك الضرب المبرح.. ثم تقولون إنني أنا الذي فعلت!

رقم ١: إننا لم نفعل يا سيدي! نقسم لك أغلظ الإيمان أننا لم نفعل.. وثمة شهود رأوك تضربه بلا شفقة..

المتهم: إن الإنكار لن ينفعكم.. وثمة براهين قاطعة لا يحصيها العد، والأفضل أن تعترفوا..

رقم ٢: نعترف بماذا؟

المتهم: بأنكم ضربتم المسكين دون رحمة ودون سبب، وبادأتموه بالعدوان قبل أن تظهر حقيقة نواياه.

رقم ٢: ولكن أنت الذي ضربته.. انظر إلى كفيك.. إنهما حمراوان ما زالتا!

المتهم: (يرفع كفاً واحدة عن الشيء وينظر إليها ثم يلوح بها في وجهي القاضيين) أيها المحتالون! هذه اليد لم تكن إلا أداة الجريمة ولكنها ليست هي المجرمة. إنها علامة فقط. ولكن من الذي ضرب المسكين؟ أنتم بالطبع! ألا تتذكرون كم وضعتم في رأسي، يوماً إثر يوم، أن الذي يأتي من الخارج إنما يأتي بحافز الشر؟ تذكروا..

رقم ١: نتذكر ماذا يا سيدي؟

المتهم: تذكروا أنكم حشوتم رأسي كل لحظة بأن أي شيء قادم من المجهول إنما يحمل نوايا الشر معه، وأن القادمين لا بد أن يكونوا وحوشاً. لم تتحدثوا أبداً عن علاقة.. تحدثتم دائماً عن الغزو والقبر والمجهول المرعب الفتاك.. لم تقولوا أبداً أن المجهول قد يكون شيئاً طيباً مسكيناً يمد يده دون سلاح.. لقد حشوتموني بالرعب وبرغبة شريرة اسمها الدفاع عن النفس، ذلك لأنكم أنتم أنفسكم أشرار.

رقم ١: لقد قلنا ذلك من باب الاحتياط فقط يا سيدي.

المتهم: .. وانظر أين وصل الأمر بنا! لقد كاد احتياطكم هذا

يقضي على هذا الشيء المسكين... وكاد يؤدي إلى اتهامي أنا بالجريمة..

رقم١: ولكنك كنت تضربه.. رأينا ذلك بأعيننا. إن الأمور شديدة الوضوح أيها السيد.

رقم ٢: والقانون أيضاً.

رقم ١: بل أنت كنت تضربه بدافع من الخيبة. كنت إنساناً مهجوراً. لم تكن تستطيع أن تضرب اللحام ولا صاحب البيت ولا السيدة المسكينة التي لا تعرف حتى الآن ماذا تفعل بالجنين الحرام الذي وضعته أنت في رحمها (يعلو صوته. الشرطي يدور الحاجز مرة أخرى فيعود المتهم إلى قفصه)، بل أنت لم تكن لتستطيع أن تفعل شيئاً بما يختص بالأمور المعنوية أيضاً. الغربة والخيبة وما شابه ذلك، وقد أدى بك الأمر إلى مرارة مجنونة جعلتك تنهال على ذلك «الشيء» المسكين الطيب ضرباً ولكماً وركلاً دونما سبب.

رقم ٢: بل كدت تميته قبل الأوان المخصص لذلك.

الشيء: (يصيح بصوت مكتوم من تحت القميص فيما يغيم الضوء بالتدريج عن قاعة المحكمة) إن ذلك أفضل.. أستطيع الآن أن أرى كما ينبغي.. ولكن ما الذي تفعله أنت؟

المتهم: إنني أضربك.

الشيء: كف عن هذه الحماقة ودعنا نتصرف مثلما يجب..

المتهم: (يضربه مرة أخرى) ألا تتألم؟

الشيء: كلا بالطبع.

المتهم: وترى جيداً في الظلمة؟

الشيء: أرى جيداً كما أنا الآن... لو رفعت هذا الشيء عني وأبعدت ما اتفقنا على أن اسمه ضوء.

المتهم: (يرفع قميصه عن الشيء ببطء وقليل من الخوف، يذهب فيطفئ الضوء الإضافي ويعود متوجساً) من أنت؟

الشيء: لنتفق أولاً على ألا يلحق أحدنا أذى بالآخر.

المتهم: اتفقنا.

الشيء: لقد احترقت مركبتي.

المتهم: مركبتك؟

الشيء: كنت قادماً للاستطلاع هذه المرة..

المتهم: وحدك.

الشيء: كان معي رفيق لست أدري ما حل به.

المتهم: هل أُرسلت خصيصاً لي؟

الشيء: كلا. قلت لك أن مركبتي احترقت وسقطت عندك. هذا كل ما في الأمر.

المتهم: وأنت تستطيع أن تتكلم؟

الشيء: إنهم يتكلمون من خلالي معك.

المتهم: ولن تستطيع أن تعود؟

الشيء: علي أن أنتظر ..

المتهم: يا لحظك التعيس أيها الغريب (يقف. يفكر قليلاً) غريب حقاً! لقد جئت عند رجل يكاد يموت من الجوع.. والآن سنموت معاً.

الشيء: هل تعني أنه ليس عندك ماء؟

المتهم: بلى! كثير من الماء ولكن قليل من الأكل.

الشيء: إنني أحتاج للماء فقط.

المتهم: وأنا وحدي لا أستطيع أن أعنى بك كما يجب.. فأنا لم أتزوج بعد، ويبدو أيها السيد إن المرأة الوحيدة التي كانت...

الشيء: امرأة؟

المتهم: أجل.. امرأة (مندهشاً) ألا تعرف ما هي المرأة؟

الشيء: لا.

المتهم: الجنس الآخر؟

الشيء: لا.

المتهم: كيف تتناسلون إذن؟

الشيء: إننا نزرع. إذا أردت رفيقاً قطعت جزءاً من جسدك ووضعته في الرمل، وسينمو ويصير رفيقاً... أو قل بالعدوى.

المتهم: مثل الشجر؟

الشيء: ليكن. مثل الشجر.. ولكن ما هي هذه المرأة؟ قلت إنها جنس آخر.

المتهم: المرأة؟ آه! إنها.. أوف! .. سيبدو صعباً أن أشرح لك. كيف أقول لك؟ .. يا إلهي.. إنها شيء جميل.

الشيء: جميل؟

المتهم: جميل. همم.. جميل، وأمور أخرى.

الشيء: اسمع.. يبدو أننا لن نستطيع التفاهم على أي شيء.

المتهم: هذا صحيح. الضوء. العتمة. القميص. الضرب. الألم. الأكل. الشرب. ثم تأتي المرأة. إننا نتحدث كرجلين في قطارين متعاكسين.

الشيء: قطار؟

المتهم: والقطار أيضاً! .. إنني أختنق.. كأن الغرفة أخليت فجأة من الهواء!

الشيء: الهواء!

المتهم: أن نتنفس! أن نتنفس أيتها الشجرة!

الشيء: اسمع! لنضع حداً لهذه المهزلة.. إننا نحتاج إلى تعارف في أول الأمر.

المتهم: إن اسمي..

الشيء: دعك من الأسماء.. ألا ترى أن خلافنا يبدأ منها؟

المتهم: صحيح.. إننا على الأقل نستطيع أن نتفاهم على خلافاتنا.

الشيء: سأحكي لك عن عالمي ثم تحكي لي أنت عن عالمك العجيب هذا.

المتهم: محاولة مسلية. ولكنها مضحكة بعض الشيء. ابدأ أنت (يسترخي).

الشيء: إن حياتنا.. نعم. حياتنا، كنت - كنت أريد أن أقول. على أي حال، إنها على ما يرام. فنحن نملك كل شيء. نعم. كل شيء على الإطلاق.

المتهم: (يضحك بصوت عال) إنك تبدو مضحكاً أيها الشيء العجيب.. كيف تجرؤ على القول إنكم تملكون كل شيء وقد اكتشفت لتوي أنكم لا تملكون المرأة ولا الهواء ولا الأكل ولا الضوء. الضوء. يا إلهي! هل فكرت بذلك؟ الضوء بالذات.

الشيء: كيف يتعين علي أن أبدأ إذن؟ إننا في موقف حرج!

فكي أقول لك ما هو عندنا يجب أن أكون على معرفة بما هو ليس عندكم.

المتهم: إن مهمتنا هنا تشبه أن نبدأ بخلق العالم.

الشيء: لا. إن خلق عالم واحد أسهل بما لا يقارن من خلق عالمين.

المتهم: أنا أعرف ما هو ليس عندي. وأخشى أن لا أفيدك.. وأنت في حال يماثل حالي.. فكي تقول لي مثلاً أنك لا تعرف الضوء ينبغي أن تكون في الواقع تعرف الضوء وإلا كيف سيخطر على بالك أن تقول هذه الجملة؟

الشيء: إننا في وضع يائس.

المتهم: أجل.

الشيء: ومع ذلك فإن شكلك يبدو لي مضحكاً للغاية.

المتهم: أستطيع أن أفهم ذلك. فأنت تبدو لي مضحكاً إلى حد التشنج أيضاً.. ومع ذلك فنحن في الواقع مكونون على نحو منطقي، فلو كانت أصابع أكفنا، مثلاً، أطول قليلاً مما هي عليه، لصار بوسع أي منا أن يقتلع زلعومه بنفسه متى شاء، أما الآن فهو لا يستطيع.

الشيء: ينبغي أن تكونوا تعساء حقاً حين تعتبرون ذلك انتصاراً.. لماذا يريد أي منكم أن يقتلع زلعومه بنفسه؟

المتهم: وأنتم؟ ألا يرغب واحدكم في الموت من حين لآخر؟

الشيء: الموت. إنها كلمة قديمة أسقطناها من الاستعمال، مثلها مثل كلمة الألم، أجدادنا الأبعدون يذكرون ذلك. أما نحن فلا..

المتهم: أما نحن فنعم.

الشيء: ماذا كنتم تفعلون إذن طوال الوقت الذي مضى؟ نحن لم نضعه عبثاً. إن الواحد منا لا يمكن أن يموت إلا إذا حرم من الماء. والماء متوفر في كل مكان..

المتهم: إنكم تعساء حقاً!

الشيء: تعساء لأننا لا نتألم ولا نموت؟

المتهم: نعم

الشيء: لا بد أن خطأً ما موجود في عقولكم، أو أنكم تجيدون الاحتيال بصورة فريدة!

المتهم: إن الشجار لن يجدينا نفعاً.. دعنا نتفاهم.

الشيء: حين تحدثت أنت عن الشيء الذي سميته امرأة.. كان وجهك يشرق بتوهج غريب.. إن هذا الشيء، كما يبدو لي، أغلى كنوزكم.

المتهم: أنت لن تستطيع أن تفهم.. كيف؟ أنت لا تعرف ما هو الجنس الآخر! بل أنت لا تستطيع أن تطفئ ضوءاً إذا أردت أن تختبئ.

الشيء: أنتم سعداء إذن؟

المتهم: بالطبع.

الشيء: جداً؟

المتهم: كفاية، ولكن بصورة لا تستطيع إدراكها.

(يقف ويبدأ في التجول في الغرفة وكأنه يحلم فيما يتحدث بصوت شاعري. وفي الوقت المناسب يبدأ الضوء بالتوهج في غرفة المحكمة بحيث يكتمل تماماً مع نهاية حديثه)

... وكيف تستطيع أن تفهم؟ إنك لم تجرب لذة أن تلتصق بدفء المرأة، عاريين. لا تعرف تلك الغيبوبة الراجفة كيف تهطل في العروق.. بل لا تعرف لذة ما هو أقل قيمة من هذا، أن تفرش نفسك في الشمس، أن تنتظر الشروق، أن تمطر السماء فوق شعرك. لا تعرف، لا تعرف لحظة الذروة في اللذة، لأنها مزيج من الألم والسعادة، كمن يضرب على قصبة ساقه، ولكنك لا تعرف الألم. الهواء. الضوء. بل أنت لا تعرف معنى أن تحب وأن تُحَب. المرأة مرة أخرى. أنت محروم من لذة الأكل، من لذة الجوع المتحفز. ماذا أعدد لك؟ الصداقة؛ الفرح والحزن والوصول؛ الهزيمة والنصر؛ الخيبة أيضاً؛ الانتصار مهما كان صغيراً. دعني أوجز لك الأمر: أن تخرج ذات يوم مع امرأه تحبها وتحبك فتغتسلان بحرارة الشمس وتأكلان، وأن

تعودا بعد ذلك للفراش فتنجبا الأولاد، الأطفال! أنت لا تعرف هذه السعادة أيضاً.. فكيف تريد أن نتفاهم؟

(تضيء قاعة المحكمة الآن تماماً)

رقم ١: أيها الأفاك المخاتل!

رقم ٢: أيها الكاذب.

رقم ١: لقد كنت تخدع ذلك الشيء المسكين!

رقم ٢: قاتل وكذاب أيضاً.

رقم ١: كنت، وأنت تعدد للمسكين الجاهل كل هذه الأمور البراقة، رجلاً مهجوراً، لا صديق له، يكاد يموت من الجوع، لا يجرؤ على المرور من أمام دكان اللحام، منبوذاً محطماً فاشلاً حزيناً.. ثم كنت تخدع المسكين!

رقم ٢: أغلب الظن أنه مات قهراً لأن كل تلك السعادة فاتته.

رقم ١: ربما كان هذا بالذات أداة الجريمة البشعة.

المتهم: يا سيدي.. تصور أن تكون في عالم مثل عالمه.. ألا يذكرك ذلك بشيء في عالمك؟

رقم ١: ما الذي تعرفه عن عالمه أيها الدجال؟

رقم ٢: لا شيء.

رقم ١: محتال.

المتهم: إنهم لا يعرفون الضوء.. عالم دون شمس. لا يستطيع أحدهم أن يجلس أمام مدفأة، ليس عند أي منهم عضو تناسلي.. إن لذلك نتائج خطيرة جداً: إذن فهم لا يحفظون أية أغنية لهدهدة طفل، ولا توجد في أسواقهم دكاكين لبيع لعب الأطفال.. تصوروا، تلك الدببة اللطيفة المحشوة بالقش، والقطط والثعالب والسيارات الخشبية..

رقم ١: أنت تتحدث عن ذلك كله في الليل، بينما كنت في الصباح عازماً على قذف السيدة عن السلم كي تجهض ابنك الحرام!

رقم ٢: وتتحدث عن الضوء فيما هم يستعدون لقطع الكهرباء عن بيتك لأنك لم تسدد فواتيرك.

المتهم: لم يكن باستطاعتهم أن يمنعوني من مداعبة طفل في الطريق، ولا من الرؤية في ضوء الشمس.

رقم ١: لقد قصرت في واجباتك وكان بوسعهم وضعك في السجن.

رقم ٢: (وهو يلوح بالحبل) أو شنقك في الليل.

رقم ١: لماذا لم تقل له إن الجنين الحرام في رحم السيدة كان يجثم بمؤخرته فوق قلبك؟

المتهم: لقد عرف ذلك بنفسه فيما بعد، إن أموراً من هذا النوع

لا يمكن إخفاؤها عن شخص يعيش معك في الغرفة ذاتها، فبعد يومين من الأحاديث حول مختلف المواضيع جاءت السيدة لزيارتي.

(يغيم الضوء بالتدريج عن غرفة المحكمة فيما تبدو السيدة عبر باب الشرفة تصعد الدرج)

كنا قد صرفنا وقتاً طيباً ونحن نتحدث. باختصار أيها السادة صرنا أصدقاء، وكان كل ما يحتاجه هو الماء

(ينهض ويحضر كوب ماء يضعه أمام الشيء، وفي اللحظة ذاتها يرى السيدة على وشك الدخول فيتناول قميصه الذي ما يزال ملقى على الطاولة ويغطي به الشيء ويتجه لاستقبال السيدة)

السيدة: جئت معي بأمي فقد يساعد ذلك على التفاهم.

(تدخل الأم)

الأم: (تخاطب السيدة) قلت لك منذ البدء إنه رجل دون مستواك، انظري كيف يستقبل سيدتين وهو بملابسه الداخلية. إنه عديم الذوق، وفي الحقيقة إنه داعر (متجهة للمتهم) أنت بحاجة إلى من يعلمك الأدب والتهذيب، ومع ذلك فمشكلتنا الآن أكثر تعقيداً من مجرد استقبالك لنا بالملابس الداخلية.

السيدة: والآن هدئي أعصابك.. إن الشجار ينبغي أن يأتي في النهاية. لماذا لا تلبس قميصك؟

بعد.

الأم: ولن تصير.

المتهم: إذن انتهى الموضوع الذي جئت من أجله يا سيدتي.

الأم: لا. لم ينته. ولكنه بدأ. ستدفع الثمن غالياً إذا كنت قد خلعت عقلك من رأسك كما خلعت قميصك.

المتهم: (باستفزاز) ماذا تستطيعين أن تفعلي يا سيدتي؟ إن صوتك يحمل تهديداً وأنا لا أحب هذه اللهجة.

الأم: ماذا أستطيع أن أفعل؟ سأعدد لك: أستطيع أن أرفع عليك دعوى؛ أستطيع أن أرسل لك أخاها فيذبحك ويغسل عار العائلة؛ أستطيع أن انهال عليك ضربا الآن؛ أستطيع أن أروي القصة لخال السيدة فيضعك في السجن حتى تموت..

(ينبثق صوت «الشيء» من تحت القميص وكأنه صدى)

الشيء: دعوى، ذبح، عار، ضرب، سجن، هاهاها.

(يندفع المتهم ويضع يده مضطرباً فوق القميص)

الأم: (مندهشة وخائفة) ما هذا؟ لقد سمعت صوتاً.

السيدة: جاء من تحت القميص.

(تحاولان الاتجاه نحو القميص فيقف أمامهما)

المتهم: لا.. لا شيء.. إنها آلة تسجيل.

الأم: أنت إذن تسجل أقوالنا لاستعمالها ضدنا.. (إلى السيدة) قلت لك منذ البدء إنه حقير.

السيدة: إنني أتساءل من أين أحضر ثمن آلة التسجيل مع أنه قال لي أمس الأول أنه لا يملك فلساً يشتري به خبزاً.

المتهم: (محاولاً تغيير الموضوع) أيتها الجميلة.. ويا سيدتي العزيزة! دعونا نحل المشكلة كما ينبغي، وبأهون السبل. نتزوج. ويصير الجنين ابننا المشروع..

الأم: (مقاطعة) تتزوج؟ أنت تتزوج؟ أنت المفلس تتزوج وتتحدث عن الطفل أيضاً! الطفل الحرام الذي جاء ثمرة احتيالك على هذه المسكينة. رجل بلا أصل تريد الزواج من السيدة. اسمع أيها المحتال: يجب أن نعمل على إسقاط الجنين فوراً، ويجب أن تعيد كل رسائل السيدة إليها، وتدفع حصتك في التكاليف.

الشيء: مفلس، زواج، طفل حرام، بلا أصل، إسقاط الجنين، رسائل، تكاليف.

المتهم: اسكت أيها الأحمق!

الأم: من هذا؟ ماذا يجري هنا؟ إننا في غرفة مجنون يا سيدة!

الشيء: لا يشتري خبزاً، حقير، آلة تسجيل.

المتهم: قلت لك اسكت.

الأم: أريد أن أفهم ما الذي يجري هنا.

السيدة: اعترف.

المتهم: (منتفضاً تحت وطأة فكرة جديدة. يتجه نحوهما ويمسكهما بحنان من ذراعيهما ويتكلم همساً) قد يكون هو الحل.

الأم: (بصوت عال) ما هو هذا الحل؟

المتهم: اخفضي صوتك لئلا يسمع.. إنه شيء ثمين (يا إلهي كيف ألهمتني هذه الفكرة المنقذة) اسمعوا: إذا عرضناه للبيع فقد يدفعون خمسة آلاف ليرة ثمناً له.

الأم: (ساخرة) أنت تملك شيئاً ثمنه خمسة آلاف ليرة؟ إنني أراهن أنك وضعت جواربك تحت هذا القميص القذر كي تخدعنا.

المتهم: أقسم لك بشرفي أنني لا أكذب ولا أخدع..

الشيء: شرف، كذب، خداع.

المتهم: هل سمعتما (همساً) إنه مخلوق عجيب عثرت عليه.

الأم: ومن أين جاء؟

المتهم: (فخوراً ومشيراً إلى فوق) من هنا.

الأم: ما رأيك أن تحتفظ بأربعة آلاف وتسعمئة ليرة وتعطينا الآن مئه ليرة فقط؟

السيدة: (ببطء وقد تغيرت لهجتها) اسمعي يا ماما.. قد يكون على حق. لنعالجه في منتهى الحرص.. ألم نقرأ في الصحف أمس أن جسماً غريباً دخل إلى الفضاء الأرضي وانفجر وأن شيئين مجهولين سقطا منه؟

الأم: ولكن هذا الشيء واحد.

السيدة: دعونا خارج التفاصيل. هل أستطيع أن ألقي نظرة عليه؟

المتهم: كلا! إن ذلك يفقده نصف ثمنه على الأقل.

الشيء: تبيعني أيها الصديق؟

المتهم: اسكت أنت الآن.

الأم: إنني أقسم بكل شيء أنك مخاتل قذر. محتال من الدرجة الأولى. ومع ذلك فإن يومين آخرين من الانتظار لن يجعلا بطن السيدة أكبر مما هو الآن، بحيث يظهر للعيان (إلى السيدة) تعالي.

(تخرجان. يراقبهما حتى يغيبهما الباب ثم يعود فيرفع القميص عن الشيء)

المتهم: كيف حالك الآن؟

الشيء: كالعادة.

المتهم: أنت لست غاضباً من سلوكي؟

الشيء: لقد خدعتني وها أنتذا تريد أن تفرط بصديقك الوحيد..

أتذكر كيف أقسمت أمس أنني شيء مهم بالنسبة لك؟

المتهم: ولكنك سمعت بنفسك ما دار في هذه الغرفة قبل قليل.. ولو لم تتكلم في الوقت غير المناسب لكنا، أنت وأنا في مأمن.

الشيء: الحب، الأطفال، الضوء، أن تنام مع امرأة. أن تأكل..

المتهم: (مقاطعاً) كفى.. إنها أمور تحدث.. (بعد قليل) هل تعتقد حقاً أنني سأفرط بك؟ لقد قلت ذلك لأبعد الكابوس فقط.. أنت الشيء الوحيد في عالمي (مفكراً) بل أنت عالمي في الحقيقة.

(تبدو السيدة مرة أخرى عائدة على الشرفة - يسارع المتهم فيغطي الشيء بالقميص)

السيدة: لقد تخلصت من أمي وعدت لك يا حبيبي..

المتهم: ما الذي تريدينه الآن؟

السيدة: أريد أن أعتذر عن أمي. ولكنك تستطيع أن تفهم. إنها امرأة عاطفية تحبني كثيراً وتخشى عليّ.. أما أنا فمعك على استعداد لمواجهة طوفان برمته.. إن الأمور مهما قست ستنتهي إلى حل.

المتهم: بالطبع.

(صمت بارد. تنظر إلى القميص)

السيدة: دعني ألقِ نظرة على هذا الشيء.

المتهم: لا.

السيدة: متى ستبدأ الاتصال من أجل بيعه؟

المتهم: لن أبيعه. إنه صديقي. إنه في الواقع عالمي كله.

السيدة: دع الأمور تسير بيسر أيها العزيز.. لا تعاند. كن واقعياً. تصور كيف يستطيع صديقك مساعدتنا بلا حدود. صديقك الطيب. تتخلص من الجنين وتسدد ديونك وندخل دخولاً رائعاً إلى حياة زوجية لا تنتهي سعادتها.. بل تصور أنه يستطيع تخليصك من السجن. قال لي اللحام الآن إن جميع أصحاب الدكاكين في الحارة قد تضافروا لرفع الدعوى ضدك.. إنها فضيحة حقاً.

المتهم: لن أبيعه.

السيدة: أيها العزيز!

المتهم: كيف سيكون بمقدورك أن تفهمي؟ أقول لك إنه عالمي.

السيدة: إنه عالم آخر، شديد البعد.

المتهم: لا. لم يعد كذلك. إنه عالمي الخاص.. دونه سأشعر بالعري.

السيدة: (ساخرة) إنك عارٍ الآن!

المتهم: أنا لا أتحدث عن القميص أيتها الغبية.

السيدة: وأنا لا أتحدث عن القميص..

المتهم: عمَّ تتحدثين إذن؟

السيدة: عن كل شيء. الأصدقاء والحرية وأنا. الحب والطعام والكبرياء. الراحة والقدرة على ملء فرص السعادة.. أنت الآن عارٍ منها جميعاً ودفعة واحدة.

المتهم: ليس كما تظنين!

السيدة: بلى. وأنت مكابر وعنيد. إن إصرارك على الاحتفاظ بهذا الشيء هو بمثابة إصرارك على المنفى.

المتهم: غبية.

السيدة: أنت الغبي. فكر قليلاً. إنه مخرجك إلى العالم الحقيقي.

المتهم: لا. إنه مدخلي للعالم الحقيقي.

السيدة: لو بعته لاستطعت أن تصبح ديكاً قرمزياً.

المتهم: في قن والدتك.

السيدة: دع والدتي خارج الموضوع الآن... ألست ترى الأمر بالوضوح الجدير برجل عاقل مثلك؟ ما الذي ستفعله بهذا الشيء؟ إنه عديم النفع بالنسبة لك. ولو بعته لأتحت الفرصة لكسب علمي هائل للعالم كله، ولأنقذت نفسك في الوقت ذاته وعدت على

سجادة حمراء إلى العالم، إلى الناس، إلى الحب.. إلى كل شيء.

المتهم: (غاضباً) لا تغرري بي. أنت لا تعرفين كيف تشرق الشمس مع هذا الشيء وكيف تتوهج خدود الأطفال وكيف تضحي المرأة سعادة حقيقية. لا تعرفين كيف يصير للهواء طعم اللذة وكيف يصير بوسعي أن أمسك الضوء بيدي وأتعلق به كما يتعلق الطفل بالغصن.. أجربت عمرك أن تسمعي الموسيقى معه؟ أن تتفرجي على الألوان؟ أن ترقصي؟ أن تنامي؟ أن تأكلي؟ أن تصهلي في الحقول وعلى رمال الشواطئ؟ أن تكوني صديقة أو حبيبة أو طفلة؟ أو تناضلي في سبيل طمس الألم؟ أن تبني دنيا من العواطف؟ أن تبعدي جدران هذا العالم المزدحم عن بعضها وتمدي الهواء فيما بينها؟ أن تسافري من أقصى الأرض إلى أقصاها في لحظة؟ وقبل ذلك كله: أن تكوني حقيقة ولو مرة واحدة في عمرك؟

السيدة: هراء! هراء! إن العالم الحقيقي وراء هذا الحاجز (تشير إلى حاجز الشرفة) وهو طريقك الوحيد إلى هناك. ضع عقلك في رأسك أيها الطفل العزيز المسكين. إن هذا الشيء هو الإنقاذ.

المتهم: إنه الإنقاذ.

السيدة: أعرف أنك تقصد عكس ما أقصد ولكن..

المتهم: لماذا لا تكفين عن هذا الهراء فتركضي وراء سروال أمك وتغيبي من هنا إلى الأبد؟ هل تسمعين؟ إلى الأبد (يمسك بها ويجرها جراً تقريباً إلى الباب) لا أريد أن أراك.

(يعود فيرفع القميص - تصدر عن الشيء قهقهة صغيرة)

الشيء: أنا لست أكثر غربة منك (يضحك بعنف) أنا لست أكثر غربة منك!

(يحمل المتهم قميصه بغضب ويضعه فوق الشيء بعنف، فيما يواصل الشيء قهقهته وتضيء فجأة غرفة المحكمة ويأخذ رقم ١ ورقم ٢ يضحكان بعنف.. فيما يظل المتهم واقفاً يرتجف بالغضب)

(ستار)

المشهد الثاني

(المنظر نفسه، غرفة المحكمة مظلمة)

الشيء: يبدو لي أنني سببت لك مشاكل غير متوقعة. إنك مطوق الآن.

المتهم: (قلقاً) ليس تماماً. إذا احتفظت السيدة بفمها مطبقاً فإن الأمور ستجري على ما يرام، أما والدتها فإنها لا تصدق شيئاً.

الشيء: أنت تفضل لو أن السيدة كوالدتها؟

المتهم: كيف؟

الشيء: أي إنها لم تصدقك؟

المتهم: طبعاً.

الشيء: أحياناً تبدو لي شديد التناقض! انظر إلى نفسك! كم تحدثت لي خلال الأيام الماضية عن روعة الصدق وضرورة الثقة، ثم ها أنت تفضل لو أنها لم تثق بصدق كلامك!

المتهم: إن رأسك، أيها الشيء، لا يعجبني.

الشيء: لا رأس لي، كما تلاحظ بنفسك.

المتهم: إذن كف عن نبش أخطائي.

الشيء: إنني لا أنبشها، إنني ألاحظها فقط.

المتهم: حسناً، إنني غير راغب في بدء حفلة ملاكمة معك وأنت تبدو لي راغباً في الشجار إلى أبعد حد. أنت ترى، حاول أن تفهمني. إنني أحاول أن أكون شيئاً طيباً.

الشيء: احذر. أنت تنزلق بصورة ستنتهي بك إلى أن تدق عنقك! لا تحاول أن تكون شيئاً طيباً، حاول أن تكون رجلاً طيباً، ذلك أنك لن تستطيع أن تكون شيئاً، مثلي مثلاً. أنت لا تستطيع أن تكون إلا رجلاً.

المتهم: هذا صحيح، بقدر ما هو مرعب.

الشيء: مرعب حقاً. أنا معك. اليوم أو غداً أو بعد أسبوع سيكون عليك أن تختار: هل تريدني أم تريد نفسك؟

المتهم: الاثنين معاً.

الشيء: مستحيل. إن الواحد لا يستطيع أن يكون اثنين.

(يتجه نحو الباب ويعطي ظهره للشيء والجمهور ويحدق عبر المصراعين المشرعين إلى الأفق)

المتهم: ينبغي أن ننتهي من ذلك كله بطريقة ما. انظر إلى هذا

الأفق يفرش المدى إلى آخر ما تستطيع العين أن ترى. إن الألوان تأخذ فيه طعماً لم يكن لها أبداً. ذلك القنديل الذي كنت أسميه شمساً. أية روعة!

(يلتفت فجأة نحو الشيء - بشيء من الغضب)

أنت لا تستطيع أن تفهم! لا تستطيع أن تفهم.. إنني ها هنا أفتح مصاريع عالم يولد لأول مرة، مليء بالدهشة، أكتشفه حبة حبة مثلما يكتشف الطفل أصابعه أصبعاً أصبعاً. دونك سيرتد هذا العالم إلى الغبار والصدأ، وسيتداعى من جديد ركاماً متعفناً وراء بكارة مزقها جيش من الرواد. إنك من حيث لا تدري تمنحني النبوة.

الشيء: أنت نبي مضحك إذن، لم تستطع رسالته الرائعة أن تمتد إلى أكثر من شخص واحد!

المتهم: وأي شخص!

الشيء: لا تتحدث عني بهذه السخرية. إنني في الواقع ما أزال أراك مضحكاً وطريفاً، وأتساءل كيف تستطيع أن تحتفظ بنفسك واقفاً على هذه الصورة.. أنت تبدو لي بهلواناً. الطاولة أكثر منطقاً منك!

المتهم: انظر إلى نفسك كيف تتحدث إلي! فيما كنا قبل لحظة فقط قد اتفقنا أنك الوحيد الذي تلقى رسالة نبوتي!

الشيء: أنا؟ ها! أنت لم تفهمني إذن! إن نبوّتك لم تتجاوزك بعد. إن الشخص الوحيد الذي ينضوي تحت لواء رسالتك هو أنت نفسك أيها التعيس!

المتهم: وأنت تعتقد أن هذا شيء لا قيمة له؟

الشيء: إلى حد ما.

المتهم: تصور إذن!.. تصور! أن رفيقك الذي لا نعرف على أية شرفة سقط يكرر قصتك هذه في مكان ما، بين أربعة جدران تولد من جديد في مكان مجهول لأول مرة... ثمة شخص آخر مثلي، على الأقل، في هذا العالم.

الشيء: وبينكما يتكدس كون من الغبار والقطيعة والصمت!

المتهم: ربما. ولكن ليس كوناً من المستحيل... وأنت بارد مثل سطل من الثلج.. لقد راقبتك وأنا أتحدث عن رفيقك الذي فقدته حين جئتما معاً إلى هذه الأرض.. ومع ذلك فأنت لم تهتز، كأن الأمر لا يعنيك!

الشيء: ربما سقط على شرفة السيدة، ووجدته أمها في الصباح فغسلته وكوته وجعلته قبعة!

المتهم: .. وها أنت تتحدث عنه كأنه قبعة فعلاً!

الشيء: قبعة، أو نبي... أنت لا تعرف كم يجعل الناس منهما

شيئين متشابهين.. إن أكثر الناس يفضل أن يضع النبي على رأسه من الخارج، مثل القبعة... مثل يافطة ضخمة ملونة مضيئة على واجهة دكان فارغ!

المتهم: لماذا لا تفترض أن زميلك سقط على شرفة رجل مثلي؟

الشيء: كي لا أتوقعه. كي لا أمضي ما تبقى لي من الزمن مكوماً هنا أترقب دخوله من الباب مثلما تترقب أنت شيئاً مجهولاً يعينك على العالم كله.

المتهم: قل لي إذن: ما الذي تتوقعه أيها التعيس؟

الشيء: إنني مربوط إليك بتلك المصادفة الرهيبة التي ستقضي علينا معاً: فقد تنتهي أنت إلى قصر مزدحم بالخدم والأكل، وأنتهي أنا إلى قارورة كحول على رف مختبر طموح!

المتهم: سنكون، إذن، متساويين.. ولكن ماذا عن رفيقك؟

الشيء: لا توسع أشغالك. دعه في مأزقه الخاص، والآن اعطني المزيد من الماء..

(يتجه فيأخذ الكأس من أمامه ويذهب إلى نهاية الغرفة، وفي اللحظة ذاتها تبدو «السيدة» وهي تصعد درج الشرفة)

الشيء: بست! بست! انتبه!

(يلتفت المتهم فيرى السيدة، يسرع فيضع قميصه فوق

«الشيء» ويتصدى للسيدة على الباب)

المتهم: نعم؟ ألم نتفق على القطيعة؟ لماذا تعودين؟

السيدة: لا تحدثني بهذه الطريقة كأنك لا تعرفني. كأن ابنك لا يخفق في أحشائي... دعني أدخل أولاً.

المتهم: ليس بيننا ما يقال بعد! لقد انتهى كل شيء!

السيدة: لا. إنني لا أدفن قلبي بهذه البساطة مثلك. إنني أحبك... والآن دعني أدخل أيها الغبي..

(يفسح لها الطريق فتدخل وتلقي نظرة جانبية على الشيء)

ما الذي حدث؟

المتهم: بأي شأن؟

السيدة: بشأن رجل الفضاء.

المتهم: لا يوجد رجال في الفضاء أيتها الغبية.

السيدة: أياً كان اسمه.. ما الذي حدث؟

المتهم: لم يحدث شيء. لقد كذبت عليك منذ البدء. كنت قد قرأت الخبر الذي قرأته أنت عن جسم غريب دخل إلى مدار الأرض فاختلقت القصة لأصرف والدتك.

السيدة: اخفض صوتك.. إنها واقفة في الخارج تنتظرني وقد تسمعك.

المتهم: واقفة في الخارج؟ أنت لا تريدين أن أرتكب جريمة قتل؟

السيدة: لا. ستكون رجلاً عاقلاً، وقد وعدتني أن تكون سيدة هادئة. أنت لا تستطيع أن تمضي عمرك حبيس هذه الغرفة (تشير إلى الشيء) مربوطاً بخيوط غير مرئية إلى شيء غريب.

المتهم: ليس ثمة أي شيء.

السيدة: (تشير إلى الشيء مرة أخرى) حسناً. مربوطاً إلى وهم.

المتهم: أنت إذن تريدين فاتورة حتى بأوهامي؟

السيدة: كن عاقلاً أيها العزيز. لقد راجعت اليوم عالِماً كبيراً وحدثته عن كل شيء.. عرض علي مبلغاً يهز جبلاً لو أتحت له فرصة واحدة للنظر فقط. كنت مع والدتي وقد جئنا لتونا من هناك، كانت تبكي طوال الطريق من التأثر. إنه يطلب نصف ساعة فقط مقابل عشرة آلاف ليرة يدفعها لك سلفاً!

المتهم: دعيه يتفحص والدتك. هذه المرأة الرقيقة، وسيستفيد أكثر مما يستفيد من تفحص أي شيء آخر.

السيدة: عشرة آلاف ليرة ثمن نصف ساعة من الفضول! هل تتصور ذلك؟ إنها فرصة العمر أيها العزيز.. إنه لا يريد أخذه، لا يريد شراءه، فقط يريد أن..

المتهم: .. أن يتعرف على رقم هويته، ويتأكد من حيازته على شهادة تطعيم ضد الجدري.

السيدة: أنت تزداد عناداً، ولكن ذلك يزيدني إصراراً.. إنني لا أستطيع أن أشطب عواطفي بهذه السهولة، ثم إنني أم طفلك، وهذا كله يمنحني حقوقاً... عشرة آلاف ليرة ثمن نصف ساعة من حياتك! إن عمرك كله لم يصل سعره أبداً إلى نصف هذا المبلغ.

(تضيء غرفة المحكمة)

رقم ١: (هامساً باستثارة) اقبل فوراً أيها الغبي! إنها فرصتك للتخلص من الحجز على ممتلكاتك.

رقم ٢: واذا فعلت فستتجنب جريمة قتل لا بد أن ترتكبها فيما بعد!

(ينظر المتهم نحوهما باستغراب فيما تبدو السيدة وكأنها لا تشعر بوجودهما. لحظات من الصمت ثم يخفت الضوء في المحكمة حتى تظلم)

المتهم: (للسيدة) إن عالِمك رجل سخيف. كان ينبغي أن يطلب منك نصف ساعة لتفحّصي أنا.

السيدة: أنت على ما يرام أيها العزيز. إنه العناد الذي لا مبرر له فقط. دعني أدع والدتي للتحدث إليك.

المتهم: دعي والدتك في الخارج إذا أردت السلام في هذا العالم.

السيدة: لا تكن عدوانياً.. ستروي لك فقط ما قال لها العالِم الذي راجعناه قبل قليل. لقد حفظت كلامه المعقد غيباً.

المتهم: لا.

السيدة: لماذا لا تستمع إليها فقط؟

المتهم: لا.

السيدة: لحظة واحدة.. ثم قل لها: لا! إذا أردت.

المتهم: لا. منذ الآن.

السيدة: أنت جبان إذن. أنت تخشى أن تقنعك. هذا كل ما في الأمر.

المتهم: تقنعني؟ أمك التعيسة؟

(السيدة تتجه إلى الخارج في حركة توحي بأنها تريد استدعاء والدتها. المتهم يتجه إلى الشيء بسرعة)

المتهم: ستظل صامتاً مثل الحجر.. لا تورطنا. سنعمل على إلغاء القصة كلها، وسأقول أنني كنت أكذب.. هل تفهم؟

(تدخل السيدة بشيء من العصبية وتلتفت وراءها وتنادي أمها)

السيدة: ادخلي يا أمي. إنه يرحب بك.

(تدخل الأم مترددة، ولكنها بشوشة، وذات نيات تبدو أنها ودية، ولكنها واضحة التصنع. فوراً يلفت النظر ما تضعه على رأسها: قبعة تشبه «الشيء» شبهاً غريباً وتبدو إلى حد ما مضحكة. وفوراً تنفجر قهقهة «الشيء» المعدنية عالية صاخبة من تحت القميص.. المتهم يتحير ويتردد ويفزع ولكنه، في محاولة للتغطية على ضحكات «الشيء»، ينطلق في قهقهة عالية مفتعلة... فتسود الغرفة حالة من التوتر والحيرة وتتحول الأم بشيء من السرعة إلى طبيعتها السلبية)

الأم: أقول لك دائماً إنه مجنون... وأنت تضعينني مرة بعد مرة في هذا الموقف المهين.. انظري إليه كيف يسخر مني! يا إلهي! كيف يمكن التحدث إلى هذا الرجل الأفاك؟ (تضحك بتوتر) صهري العزيز!

السيدة: قليلاً من الصبر يا أمي.. إن الوحدة ترهقه والهموم تفتت أعصابه... حبيبي المسكين!

الأم: انظري إليه كيف يضحك، مثل المصاب بمغص قاتل.

المتهم: (بخوف) إن قبعتك تضحكني.

الأم: لقد كنت دائماً صاحب ذوق ريفي. أنت لست الشخص الذي يحكم على جمال أو قبح أي شيء، فاحتفظ بآرائك لنفسك.

المتهم: (لنفسه) على المسكين أن يظل صامتاً طوال الوقت كي يحتفظ بنفسه حياً على رأس هذه القمامة!

(مرة أخرى «الشيء» ينفجر ضاحكاً من تحت القميص فيجاريه المتهم بافتعال ويقهقه بصوت عالٍ ليخفي قهقهات «الشيء»)

الأم: إنها غرفة مجانين!

المتهم: إذن لماذا لا تغادرينها؟

الأم: هذا ما سأفعله، حتى لو كان سقفك العاري سيمطر ذهباً!

السيدة: ماما!

الأم: في سبيلك فقط يا ابنتي المسكينة سأتحمل كل حظي التعس.

المتهم: إن الطريقة الوحيدة للاحتفاظ بجمال قبعتك، يا سيدتي هي أن تعرّضيها للمطر بين الفينة والأخرى!

الأم: (بنفاد صبر) سأعمل بنصيحتك يا بني. هل يسرك هذا؟ إذن دعنا من القبعة ولنتحدث عن الشيء الذي قاده سوء حظه إليك.

المتهم: ليس ثمة أي شيء عندي. والواقع أنكما سقطتما في خدعة. أنا لا أملك ذلك الشيء قدر ما تملكينه أنت، مثلاً.

الأم: دعنا من الفلسفة والكلام الفارغ. إن عالِماً كبيراً يعرض عشرة آلاف ليرة ليلقي نظرة على ذلك الشيء الغامض مدة نصف

ساعة، وأنا متأكدة، بل إنه هو نفسه قال لي أنه سيدفع عشرة أضعاف هذا المبلغ إذا رغبت في بيع ذلك الشيء.

المتهم: مئة ألف ليرة؟

الأم: مئة ألف ليرة... أقرب إليك من أصابعك، وستكون غبياً لو تركت هذه الفرصة تمر!

المتهم: ومع ذلك بودي لو كان بوسعي أن أكسب مئة ألف ليرة بهذه السهولة، ولكن لا شيء لدي. لقد كذبت عليكما.

السيدة: بل أنت تكذب الآن.

الأم: إن السيدة على حق. أنت تكذب الآن.

المتهم: (ناظراً للقبعة) يا للشيء التعيس! أية نهاية!

السيدة: أيها العزيز.. لا تُضع فرصة العمر. ضع عقلك في رأسك وادخل إلى العالم بالكبرياء التي تليق برجل ذكي مثلك.

المتهم: أدخل إلى العالم هذا الدخول المضحك! مثلما تدخل أمك إلى حفلة كوكتيل بهذه القبعة المبتكرة!

الأم: دعك من القبعة.. إنك تغيظني!

المتهم: أود لو يصل غيظك إلى حد تقذفينني بها غضباً!

الأم: مئة ألف ليرة أيها الغبي!

المتهم: بل مئتا ألف ليرة!

الأم: ربما يدفع مئتي ألف ليرة لو تركته يتفحص ذلك اللغز! (تلتفت إلى السيدة وتلكزها بكوعها) لقد بدأ فتاك يلين..

السيدة: هل أدعوه؟

المتهم: سيضحك عليكما حتى ينقلب على قفاه، ثم يرسل بنا جميعاً إلى حبس المجانين.

السيدة: سأرى بنفسي (تتجه بسرعة نحو القميص فيحول المتهم دونها بعنف)

المتهم: لا تقتربي من قميصي!

السيدة: ماذا تخفي تحته؟

المتهم: لا شيء. إنني حر في أن أضع قميصي حيث أشاء.

السيدة: لا. إنك تخفي تحته شيئاً.

المتهم: لنفترض أنني أخفي تحته قبعتي؟

السيدة: قبعتك؟

الأم: قبعتك؟ أنت تلبس قبعة؟ يا للمهزلة! لو رأوك تحتها لأخذوك إلى السيرك!

المتهم: ومع ذلك فهذا شغلي أنا!

السيدة: ونحن؟ أنا وأنت والطفل؟ بل أنت وحدك! حياتك وكبرياؤك وربما حريتك وسمعتك.. أين ستذهب بذلك كله؟

(ينظر المتهم إلى الأم قليلاً. يركز بصره على القبعة ثم يبدأ - وكأنه بوحي فكرة مفاجئة - يغير سلوكه تجاهها)

المتهم: حسناً! دعينا نتحدث كأناس متمدنين..

الأم: ذلك أفضل.

المتهم: إذن استريحي يا سيدتي (يسحب كرسياً) دعيني آخذ معطفك.. (تخلع معطفها بأناقة ودلال وتناوله له) وقبعتك يا سيدتي أيضاً.. (يمد يده راجفاً)

الأم: لا. دع القبعة على رأسي.

المتهم: ولكن خذي حريتك تماماً يا سيدتي. إنه بيتك. ستكونين مرتاحة أكثر دون قبعة.

الأم: (بدلال) ها أنتذا أيها الشقي تعود للنيل من قبعتي.

المتهم: لا. أقسم لك سيدتي. أنا الذي أعرف قيمة القبعة في الحقيقة. ولكنني أردتك أن تشعري وكأنك في بيتك. إن قبعة من هذا النوع تتعب الرأس بلا شك.

الأم: معك حق، ولكنني أفضل أن لا أخلعها.. أنت لا تعرف كم تتعبني حين أضعها على رأسي، ذلك يستغرق وقتاً طويلاً جداً. كلما ركزتها حيث أريد مالت إلى جانب. إنها لا تثبت على حال، ولذلك فأنت لا تستطيع أن تخمن عدد الدبابيس التي اضطررت لاستعمالها

كي أثبتها على رأسي...

المتهم: أيها الشيء التعيس المعذب!

الأم: ماذا قلت؟

المتهم: لا شيء. إنها كلمة اعتدت أن أقولها بلا معنى بين الفينة والأخرى: أيها الشيء التعيس المهذب! ولكن لماذا لا تحاولين أن تريحي رأسك هنيهة وتخلعي هذه القبعة؟

الأم: أف! أنت تضيع الوقت في حديث غير مهم.

المتهم: إنها تعجبني في الحقيقة... من أين اشتريتها؟

(الأم تنظر مبتسمة بتواطؤ تجاه ابنتها التي تبادلها النظرة نفسها، وتضحكان ضحكة مقتضبة)

السيدة: إنه سرنا. أنا وأمي. وقد تعاهدنا على ألا نبوح به لأحد.

المتهم: حتى أنا؟

السيدة: ترى لماذا تهتم بقبعة والدتي إلى هذا الحد؟

المتهم: أريد أن اشتري مثلها..

السيدة: لمن؟

المتهم: لك أنت أيتها العزيزة.

السيدة: حقاً؟

المتهم: طبعاً... أريد أن أراك دائماً تحت شيء مثل هذا.

السيدة: ولكن والدتي تعتز بها إلى حد لا تتصوره، وأخشى أن لا يكون بالوسع شراء قبعة مثلها.

المتهم: اشتريتها من والدتك (يلتفت إلى الأم) كم تريدين ثمناً لها؟

الأم: (تضحك) إنني لا أبيعها.. ولكنك لو كنت طيباً وتعاونت معنا ومع الأستاذ العالم وأتحت لنفسك قبض ذلك المبلغ الخيالي فإنني أعدك أن أقدم القبعة هذه هدية لك كي تعطيها للسيدة كما ترغب.. والآن؟

المتهم: الآن ماذا؟ هل ستخلعين القبعة؟

الأم: أف! (تلتفت إلى السيدة) إنني شديدة الحيرة.. ويبدو أنني سأنفجر وأطق!

السيدة: قليلاً من الصبر يا ماما.. إن الأمور تسير على ما يرام.

المتهم: اسمعوا. دعينا ننتهِ من هذه المهزلة. في الحقيقة ليس لدي هنا أي شيء، ولذلك لا تتعبي نفسك يا سيدتي.. وبالمقابل أنا مهتم جداً بالحصول على قبعتك...

الأم: يا إلهي!

المتهم: اسمعي يا سيدتي، وكوني عاقلة مثلما كنت دائماً: لقد جئت إلى هنا كي تعقدي صفقة، ولكن لسوء الحظ كانت افتراضاتك

خاطئة.. إنني أعوضك عن هذه الخيبة بصفقة أخرى فأعرض عليك شراء قبعتك..

الأم: إنك لا تملك ثمن رغيف.. ثم إنني أتحدث عن صفقة بمئة ألف ليرة أيها الأحمق!

السيدة: (ساخرة) ما الذي تستطيع أن تدفعه ثمن هذه القبعة؟

المتهم: أي شيء تريدانه!

السيدة: (بهدوء، مشيرة إلى القميص) نريد هذا، هذه هي الصفقة.

المتهم: إلاّ هذا! (متردّداً) لأنه في الحقيقة لا يوجد أي شيء تحت القميص، وأنا لا أريد أن أغشكما.

السيدة: نحن نقبل الصفقة دون الاستماع إلى كلامك.

المتهم: ولكني لا أقبل.

الأم: (تنهض بعنف) ذلك كله كلام فارغ وإضاعة وقت ليس إلا! قلت لك منذ البدء أنه رجل مجنون كذاب.. أما أنا فسأنفض يدي من هذه القصة، لا أريد أن أتحول إلى أضحوكة للناس.. هيا بنا.. دعيه هنا يمت جوعاً.

السيدة: ماما!

الأم: لن أبقى لحظة واحدة. أنا أعرَف منك بهذا الصنف من

الناس، هيا بنا!

(تتناول معطفها وتسحب السيدة بما يشبه العنف نحو الباب... يلحق المتهم بهما ولكنهما تخرجان. يقف لحظة متردداً ثم يصرخ عبر المصراع)

المتهم: (صارخاً) امشِ قليلاً تحت المطر يا سيدتي... تحت المطر بحق الإله!

(يعود فيرفع القميص عن الشيء).

الشيء: (يضحك) لقد زحزحوك قليلاً.

المتهم: لا. إنني في مكاني تماماً. لا. في الواقع لست في مكاني. إنني في وضع أفضل الآن.

الشيء: صرت نبياً يفتش عن قبعة!

المتهم: بالضبط... هل تدري؟ إنني أعبد حماتي الآن.. لقد جاءت إلى هنا تحمل الحل على رأسها.

الشيء: تقول «الحل»؟ ها ها ها! إن طموحك السخيف يعجبني.

المتهم: ألا تفكر بإنقاذ رفيقك المسكين وإنزاله عن رأس تلك المرأة؟

الشيء: لماذا؟ ربما كان الآن في العلبة المخصصة له يضحك علي حتى الإغماء... هل تعتقد أن مصيره أسوأ من مصيري؟ على

الأقل إنه يعسكر في مكان مرتفع ويستطيع أن يرى الأشياء والأمور بصورة أفضل مني..

المتهم: أنت لا تطاق!

الشيء: إن حماتك تقول الشيء ذاته عن قبعتها حين تتزحلق عن شعرها.

المتهم: ولكن ألا تملك شيئاً من التقدير لي؟ على الأقل أنت ترى كم أعتز بك.

الشيء: وحماتك تعتز بقبعتها.. وقد رأيت الأمر بنفسك.

المتهم: أي أنك لا ترى الفرق بينك وبين تلك القبعة؟

الشيء: بلى. فرق شكلي. تلك تستر الرأس من الخارج، وأنا أستر الرأس من الداخل. حماتك استعملت رفيقي لـ....

المتهم: (يقاطعه) كفاك هراء. إنني أتحدث عن حل يصلح لنا جميعاً..

الشيء: لنا جميعاً؟ أنت وأنا وهو والسيدة؟

المتهم: ربما. ربما كانت السيدة فقط خارج الموضوع، موقتاً. اسمع. ينبغي في البدء أن نحصل على رفيقك بأي ثمن، ثم نذهب جميعاً إلى مكان أعرفه، لا يوجد فيه أحد. إنه أرض تعيسة قاحلة كانت لجدي وأورثني إياها لأنها لا تباع بنصف قرش.

الشيء: وننشئ هناك دولة.

المتهم: بالضبط. في البدء نشرع بالزراعة. زراعتك أنت، نقطع منك عرقاً أو عرقين، ومن رفيقك بضعة عروق، وهكذا نتكاثر، ونصبح شعباً، على الأقل لن تشكو الوحدة آنذاك.

الشيء: وأنت؟

المتهم: أغزو بكم العالم فيما بعد. ونعيد اكتشافه من جديد.. إنها صفقة عادلة كما أعتقد: أعطيك عالماً ها هنا والآن مقابل أن تعدني بعالم فيما بعد.

(تنتابه حمى هستيرية فيتحرك باستثارة مبالغ فيها في رقعة واسعة).

إنها صفقة عادلة: أنت الآن وحيد ومعذب ونهايتك مشؤومة ومهددة ولا قيمة لها. أليس هذا صحيحاً؟ حسناً! إنني أوظف نفسي عندك كالعبد، وأبني لك عالماً كاملاً من أشياء مثلك... ومقابل هذا أنتظر أنا حتى يتكون عالمك وبه أغزو عالمي الضال هذا. أخلق رجالاً مثلي، عبر أشيائك. من شرفة إلى أخرى ينطّ جنودك كما نططت أنت إلى شرفتي فقلبت كل شيء. من رجل مهزوم إلى رجل مهزوم آخر، حتى يصبح لي، مثلما حدث معك، شعبي وعالمي.

الشيء: أنت نبي حقيقي.. ولكن ما أدراني أنك لن تجعلنا

نتكاثر حتى تبيعنا بالأقفاص فيما بعد؟

المتهم: هراء! ينبغي أن تكون قد وثقت بي، وقد رأيت بنفسك ما حدث: عدني بالجنة التي أريدها أعدك بأن لا تمضي عمرك تعيساً ووحيداً.

الشيء: ستصبح اذن ملكاً على حقل من القرنبيط!

المتهم: أنت لا تكف عن السخرية، ومع ذلك فإنك ترتجف حبوراً في أعماقك... وفي الواقع أنني أنا الذي أدفع الثمن الأكبر: أعطيك كل شيء مقابل وعد..

الشيء: وماذا ستعطي أولئك الذين سينضمون إلى مملكتك فيما بعد؟

المتهم: عالماً أفضل.

الشيء: إنني على أي حال لا أخسر شيئاً، ولذلك لا رغبة عندي في المعارضة الآن، ولكن يضحكني جداً أنك ستبني كونك الجميل هذا مبتدئاً بقبعة.

المتهم: لا! كن رقيقاً.. قبعة على رأس حماتي نحولها، أنت وأنا، إلى نبي مثلك.

الشيء: وهذا يعني أنه يتوجب علينا أن نسرقها؟

المتهم: لا، نعطيها القيمة التي لا تستطيع حماتي أن تعطيها.

الشيء: ودون ذلك لا نستطيع أن نبدأ وحدنا، أنت وأنا؟

المتهم: بالطبع لا، أيها الأحمق، سينتهي بك الأمر إلى الجنون وحدك... ثم... ثم ماذا لو ضاق صدر رفيقك المشكوك مئات الدبابيس على ذلك الشعر المصبوغ فأخذ يصرخ؟ ألا يعطل ذلك كل شيء؟

الشيء: نسرق القبعة إذن.

المتهم: تماماً. هذه هي الخطوة الأهم والتي لا غنى عنها لأي منا.

(تضيء قاعة المحكمة فجأة)

رقم ١: (مخاطباً رقم ٢) سجل في الملف: جريمة الشروع في السرقة أيضاً.

رقم ٢: (دون أن يفعل شيئاً) طبعاً. جريمة الشروع في السرقة أيضاً.

رقم ١: وهناك جريمة أخرى سنعقد بشأنها جلسة خاصة فيما بعد.

رقم ٢: بالطبع. جريمة الشيء حين أخفى هويته وتنكر في شكل قبعة.

رقم ١: نوع خطير من الغش.

رقم ٢: ولكننا الآن أمام جريمة مستعجلة أكثر... الشروع في

السرقة، ويبدو أنها سرقة من ذلك النوع الذي يقتضي استعمال العنف.

المتهم: (مقترباً من حاجز القفص) لا أيها السادة! لم يكن في النية استخدام العنف على الإطلاق.. كنا ننوي أن نصنع قبعة من قماش تشابه قبعة حماتي تمام الشبه، ثم ننتهز أول فرصة فنستبدلها بذلك الشيء المسكين!

رقم ١: (مخاطباً رقم ٢) سجل إذن: السرقة والاحتيال بما في ذلك الغش.

المتهم: إنني أرفض هذه التهمة الملفقة. إن القبعة ستظل قبعة من ذات النوع والصنف، على الأقل بالنسبة للطرف المدعي.

رقم ١: ولكن بالنسبة لك ستصير القبعة مخلوقاً ثمنه مئة ألف ليرة.

المتهم: بالضبط! ولذلك فإن الأمر ليس سرقة. إنه مضاعفة قيمة الشيء المسروق مئات المرات، دون أن يتضرر الشخص الذي سُرق. بل إنني أعتقد أن الحيلولة دون حدوث شيء من هذا القبيل جريمة ينبغي أن يعاقب عليها القانون.

(يتقدم «الشرطي» فيدور الحاجز فتصبح المحكمة في قفص الاتهام ويعود دون أن يعيره أحد أي اهتمام، وفي هذه الأثناء يواصل

المتهم كلامه كأن شيئاً لم يحدث مع تغير خفيف في لهجته).

... وفي هذا النطاق أعتقد أنكما تعرقلان سير العالم نحو الأفضل، وهي جريمة لا توازيها على الإطلاق عملية استبدال قبعة بقبعة مماثلة.

رقم ١: إن هذا الموقف يا سيدي المتهم موقف شكلي... فبوسعك أن تقول لحماتك الحقيقة، وعندها سيكون بوسعها أن تبيع قبعتها لأول مختبر تصادفه في الطريق وتشتري بثمنها عشرين أو ثلاثين ألف قبعة مماثلة.

المتهم: وهذه هي الجريمة بالضبط.. استبدال نبي واحد بعشرين ألف قبعة.

رقم ١: أليس ذلك، يا سيدي المتهم، أفضل من قبعة واحدة؟

المتهم: ولكنها ليست قبعة... إنه شيء مسكين ثمين استخدم بصورة خاطئة وسخيفة ومحزنة، وقد كنت أبذل جهدي لرد القيمة إليه كما رأيتم بأنفسكم قبل قليل، وها أنتم ترتكبون فوراً تلك الجريمة الرهيبة فتحاولون منع حدوث ذلك... إنني أطالب بتفسير.

رقم ٢: التفسير هو: أنك ستسرق قبعة تلك العجوز المسكينة.

المتهم: لا. أنتم الذين تتواطأون على خداع تلك السيدة وخداع العالم كله. كنتم تريدون من كل الرجال والنساء الذين

شاهدوا حماتي أن يسقطوا ضحية تلك الخدعة القذرة فيقولون كلما مروا بها: ما أجمل قبعة تلك السيدة. في حين أنها ليست قبعة. أما أنا فكنت أريدهم أن يقولوا: ما أجمل قبعة السيدة، حين تكون قبعة حقيقية...

رقم ١: هل كنت يا سيدي تريد إعطاء القيمة الحقيقية للقبعة أم للشيء؟

المتهم: للقبعة بالنسبة للسيدة، وللشيء بالنسبة لي.. تصوروا لو أن المسكينة العجوز امتنعت عن السير تحت المطر فمات ذلك الشيء من العطش، وجاءت ذات يوم لتلبس قبعتها فوجدتها رماداً.. أي حزن كانت ستسقط فيه؟

رقم ١: أنت على حق يا سيدي... كانت، عندئذٍ، ستفقد قبعتها الجميلة...

المتهم: أما أنا فكنت أريد أن أعطيها قبعة حقيقية بالوسع غسلها وكيها وصبغها أحياناً ونشرها في الشمس.. ثم ستكون أسهل للاستعمال..

رقم ٢: (متجهاً لرقم ١) إنه، نوعاً ما، على حق.

رقم ١: (للمتهم) إننا نعترف يا سيدي بالشروع بارتكاب تلك الجريمة، لو تفضلت فقط فأجبتنا على سؤال واحد: هل كنت

تستطيع استبدال قبعة السيدة بقبعة أخرى مثلها تماماً، شكلاً وموضوعاً؟

المتهم: شكلاً نعم. إلى حد ما بالطبع. لن يكون تشابهاً مطلقاً ولكنه تشابه لا تستطيع إلا مختبرات عالِم فضائي كشف نواقصه.

رقم ٢: (متحفزاً) وموضوعاً؟

المتهم: موضوعاً؟ بالطبع لا. إنني أعطيها قبعة مقابل قبعة من حيث الشكل تقريباً... ولكن من حيث الموضوع أعطيها قبعة مقابل جنة.

رقم ١: سرقة مع الغش.

رقم ٢: سرقة مع الغش. بالطبع.

المتهم: لا! لا! لا!

رقم ١: من أدراك أن قبعتها لم تكن جنتها الصغيرة الخاصة؟

(يتقدم «الشرطي» مرة أخرى فيعيد الحاجز إلى وضعه السابق، بالحركة نفسها المشار إليها فيما سبق)

المتهم: ومع ذلك فأنتم تختارون ما هو رهيب حقاً، تختارون ثلاثين ألف قبعة مقابل ثلاثين ألف نبي. فترينة مزدحمة بالقبعات بدل جيش من الرواد. وما هي الحجة التافهة التي تستخدمونها؟ جنتها الصغيرة الخاصة! جنتها الصغيرة التافهة! جنتها الصغيرة المزورة!

(يعود «الشرطي» الذي لم يكن قد غادر المسرح تماماً فيمسك بالحاجز إلا إنه يظل واقفاً هناك متردداً)

رقم ١: أما أنت، فتعيش على وعد، وفي الواقع أنك تسرق قبعة مقابل وعد، فتحرم السيدة من قبعة ويظل الوعد عرضة للسقوط.

المتهم: ورغم ذلك، فأنا لم أسرق القبعة.

رقم ١: حاولت.

المتهم: نعم، ولكنني فشلت.

رقم ١: (لرقم ٢) لنحاكمه إذن على فشله.

رقم ٢: لو فعلنا فسيغضب إلى حد الجنون رغم أن دفاعه عن سرقة القبعة كان حاراً ومحزناً إلى حد يمكن أن نعتبر الفشل في تنفيذ تلك السرقة جريمة كبيرة.

رقم ١: إنه يحيرنا. لا يريد أن يحاكم بمنطق القانون ولا يريد أن يحاكم بمنطقه الشخصي.

المتهم: يجب أن تحاكموا حماتي لأنها أحبطت منطقكم وأحبطت منطقي في وقت واحد.

رقم ١: أين حماتك؟

المتهم: باعت قبعتها.

رقم ١: لمن؟

المتهم: لامرأة أخرى.

رقم ١: من هي؟

المتهم: باعتها بدورها لامرأة ثانية.

رقم ١: أين هي؟

المتهم: باعتها هي الأخرى.

رقم ١: والآن؟

المتهم: ما تزال تباع بسرعة كبيرة، بسرعة معها على بطل العالم في الركض أن يلحق بها.

رقم ١: وأنت؟ ماذا كنت تفعل؟

المتهم: كنت أركض... ولكن يبدو أن القبعات أسرع انتشاراً من الأنبياء... فجأة صار الشارع مليئاً بالقبعات من ذات الطراز، في الواجهات، وراء المنعطفات، في الحفلات، على رفوف الخزانات... آه أيها السادة! آه أيها السادة! هل تتصورون كيف يمكنني العثور على ذلك الشيء المسكين في تلك الغابة من القبعات؟

رقم ١: وماذا فعلت؟

المتهم: حملت الشيء المسكين (مشيراً إلى الشيء الساكن على الطاولة) ووقفت على الرصيف، وأخذنا نصفر معاً لكل سيدة تضع على رأسها قبعة من ذلك الطراز، على أمل أن يبادلنا الصفير.

رقم ١: ولم يحدث أن سمعتما قبعة من تلك القبعات تصفر؟

المتهم: لا. ففي ذلك المساء حسبوا أنني أصفر للسيدات، واحتجزوني في الحبس بتهمة الإساءة للأخلاق العامة، وفي الصباح توقفت عن الصفير، فأنا لا أحب السجن بتهمة الإساءة للأخلاق حين يكون هدفي الحقيقي تحسين هذه الأخلاق.

رقم ١: وحماتك؟ ألم تدرك أبداً أنها كانت تضع على رأسها مئة ألف ليرة دون أن تعرف؟

المتهم: مئة ألف ليرة؟ لقد كان يا سيدي شيئاً لا يقدر بثمن! لقد كنت أحاول أن أعرّفها على قيمة ذلك الشيء وليس على ثمنه.. أتفهمون؟

رقم ١: (مع رقم ٢، في وقت واحد) لا.

المتهم: (ينظر إلى الشيء على الطاولة) هل سمعت؟ إنهم لا يفهمون! لا يعرفون الفرق بين القيمة والثمن.. المسألة بالنسبة لهم هي مسألة الفرق بين قبعة رخيصة وقبعة غالية!

(ينصرف إلى «الشيء» فيما يغيم الضوء بالتدريج عن رقعة المحكمة).

الشيء: إنني أشفق عليك أيها الصديق... وأحياناً يؤنبني ضميري.

المتهم: يؤنبك ضميرك؟ انظر إلى حالتك! ضميري أنا الذي يؤنبني، انظر كم أنت وحيد ومهزوم.. أما أنا فأستطيع، على الأقل، أن أرتد إلى عالمي.

الشيء: حتى تلك الردة صارت مستحيلة.. أنت تستطيع أن تتخلص من قبعة ولكن ليس من نبي.

المتهم: ولذلك يفضلون القبعات؟

الشيء: أجل... يختلفون عليها. قبعات رخيصة وقبعات غالية. إنه حوار في قفص الأمان، ولكن من يجرؤ أن يضع قدمه خارج ذلك القفص؟

المتهم: يخيل إلي أحياناً أنك عبء.

الشيء: أحياناً؟

المتهم: دائماً.. وها نحن لا نعرف ماذا يتعين علينا أن نفعل: فلا أنت تستطيع أن تعود إلى عالمك، ولا أنا أستطيع أن أعود إلى عالمي.

الشيء: مثل الفكرة.

المتهم: ماذا قلت؟

الشيء: قلت مثل الفكرة، إذا ولدت فليس بالوسع التخلص منها.. بالوسع خيانتها فقط.. ولذلك ترى كم هو سهل بالنسبة

للكثيرين أن يضعوا الأفكار فوق رؤوسهم كالقبعات، ولكن دون أن يتركوها تغوص إلى داخل رؤوسهم.

(رأس رجل يظهر وراء حاجز الشرفة متجهاً نحو الغرفة)

الشيء: لقد جاءك ضيف، اسرع.

(المتهم يغطي الشيء بقميص، ويتجه نحو الباب)

الساعي: برقية لك (يتناولها) وقّع هنا (يوقع) اكتب اسم والدتك هنا (يكتب) اعطني سيجارة (يعطيه) اشعلها لي أرجوك (يشعلها) أوف! (يمتص نفساً عميقاً ويخطو إلى الداخل بلا كلفة) إنني أشكو من مرض خطير يتعلق بعملي، مرض لا شفاء منه. ففي حين أن مهمتي تقتضي مني أن أكون أقل الناس فضولاً فإنني على العكس أكثرهم فضولاً (يشير إلى البرقية في يد المتهم) إنني محكوم بالعذاب (المتهم ينظر إليه بفضول) إنني سريع التأثر ولكنني أمين أيضاً. وبعد أن أنتهي من عملي أذهب إلى البيت (يقترب منه) إنني أعيش وحيداً كما تعلم. وأتذكر وأجلس وأبكي وأضحك ويستثيرني الفضول وأحياناً أفكر، أبكي لموت سيدة فاضلة، وأفرح لإرث مفاجئ، وأفكر بمعضلة، وأحسب كيف ينبغي أن يدفع قسط مدرسة ذلك الصبي الشقي الذي كتب لوالديه يشكو إفلاسه. وهكذا صارت دراجتي كوكباً صغيراً (يمتص نفساً آخر بشوق) والآن: اقرأ لي البرقية.

المتهم: (يفتح المغلف بلا وعي، يقرأ ببرود، ينظر حواليه بشيء من الاستثارة، ثم يقرأ بصوت عالٍ كأنما لنفسه): سندفع لك فوراً مليون ليرة ثمن السر الذي عندك - (ينظر إلى ساعي البريد) إنها من مختبر أبحاث مهم.

الساعي: مليون ليرة؟ اقرأها مرة أخرى. تأكد من ذلك. إن أحداً يضحك عليك بلا شك.

المتهم: (لنفسه) مليون ليرة فوراً (مشدوهاً) مليون ليرة؟

(ستار)

المشهد الثالث

(نفس المشهدين الأول والثاني، الأمور الإضافية هي: أكوام من الرسائل والأوراق على طاولة المتهم - آلة كاتبة أيضاً - حيوية إضافية تلاحظ بوضوح على المتهم، المستغرق في القراءة وفتح الرسائل...)

المتهم: ومع ذلك فأنا لن أتخلى عنك أيها الصديق. أقسم لك بكل شيء. بكل قبعات العالم.

الشيء: لقد اغتاظت السيدة منك إلى حد فضحت سرك الصغير. إن مختبرات العالم تتلوّى فضولاً.

المتهم: آخر العروض؟

الشيء: مليون ونصف. في الرسالة التي أمامك مباشرة. والشروط معقولة، وكذلك يبدو أن سمعة ذلك المختبر سمعة جيدة... إنهم يعدون بأن يطلقوا علي اسمك حفاظاً على حقوقك.

المتهم: سنكتب لهم لا، بقليل من التهذيب، وليس كما فعلنا سابقاً.

الشيء: هناك عروض أخرى: من مصنع للألبان المعلبة؛ شركة طيران؛ متحف زراعي؛ مصنع للطبع على الأنسجة؛ كلية الآداب؛ قسم الشعر في جامعة أكسفورد؛ مشروع السنوات العشر للنزول على القمر؛ جمعية تحسين العلاقات الفضائية؛ شركة أفلام هتشكوك؛ مؤسسة الرفق بالحيوان؛ المقر البابوي في الفاتيكان؛ دار نشر فرنسية؛ دائرة الاستخبارات الأميركية والروسية والصينية والإنجليزية والفرنسية والألمانية والكوبية؛ دار شهيرة لعرض الأزياء؛ مختبر الأبحاث الجرثومية؛ مليونير سويسري يجمع الطرف واللوحات، وخصوصاً لوحات بيكاسو وسلفادور دالي. عروض أخرى أهمها من طفل في الهند ضيّع في الأسبوع الماضي مخلوقه الفضائي الخاص الذي كان يربطه بخيط من القنب، وعرض من مصور صحفي ناشئ يريد أن يحقق انتصاراً يضمن مستقبله المهني. وهناك عروض من...

المتهم: (مقاطعاً) كفى. كفى! ذلك شيء يبعث على الجنون!

(تتخذ الحركة على المسرح، منذ الآن، طابعاً هستيرياً مختلطاً ومتداخلاً).

... ذلك شيء يبعث على الجنون (يضرب على الآلة الكاتبة).

الشيء: وعرض من فرقة للألعاب البهلوانية وترويض الحيوانات المفترسة، يتيح لك أن تظهر معي في جميع العروض.

(يدخل ساعي البريد، يضع رسالة، ويأخذ ورقة ويخرج مندفعاً)

الشيء: عرض جديد بمليوني ليرة من الحكومة الكندية، إنها بحاجة إلى مزيد من السكان ليعملوا في أراضيها.

(يعود الساعي لحظة)

الساعي: نصف بالمئة لي. عدني (يخرج)

(وتنطفئ الأضواء، ويعم المسرح الظلام. رقعة صغيرة من الضوء تضيء فجأة الوجوه فقط على المسرح. لا تنتقل من وجه إلى وجه ولكنها تنفجر فجأة على وجه ما وتنطفئ مع انتهاء الجملة)

المتهم: لا. إن ذلك يبعث على الجنون.

(يضيء وجه السيدة) جنون.. جنون.

(يضيء وجه أمها) غبي. أحمق.

(يضيء الشيء) مصنع لحبوب ضد الزكام مستعد لشراء الاسم.

(يضيء وجه المتهم) اسم مقاومة الزكام.

(يضيء وجه الساعي) حصتي من هذا الركض كله.

(يضيء وجه المتهم) إنهم يشترون...

(يضيء وجه السيدة التي تكمل) يشترون لك مستقبلاً رائعاً.

(يضيء وجه أمها) لم تحلم به أبداً..

(يضيء وجه رقم ١) ينقذك من ورطة..

(يضيء وجه رقم ٢) أولها الحجز على ممتلكاتك.

(يضيء وجه المتهم - مكملاً) للقبض على ذلك المسكين، كأنني مخبر سري من الدرجة الثالثة.

(يضيء وجه رقم ١) إخفاء معلومات لصالح البشرية.

(يضيء الشيء) السعر يتصاعد: مليونان ونصف المليون.

(يضيء وجه السيدة) نقداً ..

(يضيء وجه الأم) وفوراً.

(يضيء وجه الساعي) الكف عن فتح رسائل الناس والحزن من أجلهم.

(يضيء وجه المتهم) جنون! جنون!

(وجه الأم) جنون!

(وجه السيدة) جنون.

(تضيء غرفة المحكمة)

رقم ١ ورقم ٢ معاً: جريمة قتل، فيما بعد، عقوبتها الإعدام شنقاً.

(يضيء المسرح دفعة واحدة، الجميع: الساعي، رقم ١، رقم ٢، السيدة، أمها بصوت واحد)

الجميع: مجنون. جنون. هيا!

(ينطفئ الضوء)

المتهم: (صوته في الظلام، ثم تضيء غرفته بالتدريج وتعود إلى وضعها السابق، هو والشيء فقط) سيدي! (يبدأ بالضرب على الآلة الكاتبة) أبلغكم بكل سرور فرحي الشديد بعرضكم المغري لشراء ما وصفتموه بأنه سري الذي أحتفظ به، إن جهلكم بقيمة الأسرار الحقيقية يتعسني حقاً، ولذلك فأنا آسف أن أبلغكم رفضي لطلبكم، ولكن لا مانع من أن تحاولوا مرة أخرى شرط أن تفهموا أن قيمة هذا السر، عكس الأسرار الأخرى، هي في أن يذاع بأقصى ما يمكن من الأمانة...

الشيء: أمامك مئة رسالة على الأقل.

المتهم: (ينزع الورقة من الآلة الكاتبة ويضع ورقة جديدة) سيدي: اقتراحكم لشراء اسم المخلوق الفضائي كي تجعلوه ماركة لدواء ضد الزكام لا يمكنني البحث فيه إلا إذا توصلتم حقاً إلى دواء ضد الزكام، الأمر الذي تؤكد لي مصادري الخاصة أنه لم يحصل إلى الآن.

(ينزع الورقة ويضع ورقة جديدة)

سيدي: أخشى أن لا يكون لجمعيتكم التي ترفق بالحيوان أي علاقة بالمخلوق الفضائي الذي هو شيء خاص (بعد هنيهة) سيدي: إن عرضكم لشراء سري الخاص كي تستعملوه في عروض ترويض الحيوانات الشرسة يتميز بقلة التهذيب والاطلاع (بعد هنيهة) أيها الطفل العزيز: إن الملخوقات الفضائية لا يمكن ربطها بخيط من القنب. ولذلك أضعت مخلوقك التعيس.. إن مخلوقاً مثل الذي عندي يحتفظ به عن طريق إطلاقه (بعد هنيهة) إن عرضكم الأخير الذي رفعتم فيه السعر إلى مليوني ليرة ونصف المليون... (يتوقف)

الشيء: ماذا؟

المتهم: لست أدري... إنني متعب قليلاً... مشوش في الحقيقة.. وعلي أن أقرأ تلك الرسالة مرة أخرى.

الشيء: أنت تتصرف كمليونير حقيقي..

المتهم: لقد بدأت، بدورك تزعجني، انظر كم أضحي من أجلك، ثم لا تقابلني إلا بالسخرية..

الشيء: بدأت تساوم!

المتهم: لا. وأنت كاذب، واستفزازي أيضاً.. ما الذي تريده؟

الشيء: لا أعرف.. ولكن هل تعرف أنت؟

المتهم: لا. (مشوشاً) دعنا نكمل هذا الجنون غداً. إنني متعب.

الشيء: أنت متردد.

المتهم: لا. متعب فقط.

(تدخل السيدة، والأم، والساعي ويقفون هناك، حول المتهم، دون أن يتحدثوا إليه)

المتهم: من كان يحسب أن الأمور ستصل إلى هذا الحد (يلتفت نحو المجموعة) قلت لكم ألف مرة لا، وأنتم تقولون نعم.. نعم..

(يعود إلى الطاولة ويبدأ في النقر على الآلة الكاتبة، المجموعة تتحلق حوله) سيدي (يقرع على الآلة الكاتبة بصمت) سيدي (يعاود القرع) المخلص (يتوقف هنيهة ثم يبدأ بالقرع من جديد) آمل أن أسمع منكم قريباً (يقرع من جديد - فيما يتبادل أفراد المجموعة الأوراق التي تنزعها السيدة عن الآلة)

الشيء: (صارخاً) أريد ماء.

المتهم: (دون أن يكترث) دعني أيها الغبي أنهي أعمالي الآن.

الشيء: ماء..

المتهم: (يقرع على الآلة الكاتبة) سيدي، إن الملايين الثلاثة التي عرضتموها... (يصمت) إني أنتظر منكم (يصمت) المخلص (يصمت).

الشيء: ماء.

(ينتصب على الطاولة)

المتهم: (يقرع على الآلة من جديد) وبالرغم من أنني أعتقد (يصمت) فإن شروطاً (يصمت - يواصل النقر على الآلة) فأنا الآخر (يصمت) المخلص.

الشيء: ماء أيها الخائن! ماء.

(يتقوض بالتدريج)

المتهم: (يضع الأوراق أمامه ويسويها بدقة، مستغرقاً) مصنع لتعليب السبانخ - مجلة سوبرمان - حلقات تلفزيون - ها! ها! يا للتفاهة.

(ينهض، يتجول في الغرفة مفكراً - المجموعة، الأم - السيدة - الساعي يلملمون الأوراق والآلة عن الطاولة ويتركونها عارية ويخرجون على التوالي - المتهم يقترب من الشيء ويتفحصه، ثم يرفع رأسه ببطء باتجاه المحكمة التي تضيء فجأة بنور ساطع)

المتهم: لقد مات أيها السادة!

(تنطفئ جميع الأنوار ثانية واحدة تعم فيها العتمة ثم تنفجر دائرة ضوء واحدة على وجه رقم ١)

رقم ١: قتلته عطشاً. أبشع أنواع الموت.

(ينطفئ الضوء في ثانية أخرى من الصمت، ثم تنفجر دائرة ضوء على الحبل الموضوع على طاولة المحكمة ثانية أخرى)

رقم ١: (الصوت فقط) عقوبة الإعدام شنقاً.

(الظلام مرة جديدة... ثم تضيء غرفة المتهم الذي يبدو وهو يستكمل لبس قميصه، متخذاً الوضع الذي كان عليه في المشهد الأول)

المتهم: أنا لم أقتله أيها السادة. وقد رأيتم ذلك بأنفسكم.

(يضيء المسرح كله)

رقم ١: رأينا أنك قتلته.

المتهم: (ببرود) قتلته أم قتلتها؟

رقم ٢: إنه يعود إلى لعبته الخبيثة.

المتهم: أطالب بنص قانوني واضح، يتعلق بقتل شيء قادم من الفضاء.

رقم ١: (لرقم ٢) اللوائح تتيح له حق طلب من هذا النوع. (للمتهم) هذا طلب تستطيع أن تبرزه في محكمة فضائية. أما هنا...

المتهم: أنا لم أقتله... أنا استُخدمت لنسيانه وأدى ذلك إلى موته.

رقم ١: أنت خنته، ولذلك مات.

المتهم: موافق. على أن خيانة شيء قادم من الفضاء مسألة خاصة جداً لا علاقة لها بالقانون. إنها ليست مثل خيانة الوطن، أو خيانة الزوجة..

رقم ١: خيانة مبادئ.

المتهم: مبادئ غير متفق عليها. مبادئ غير مقبولة إلى الآن، في الواقع..

(يصعد الشرطي فيغير وضع حاجز قفص الاتهام فتصبح المحكمة في القفص - المتهم يكمل..).

... وأنا بدوري أطالب محاكمة المتسببين الأصليين في الجريمة.

(يخرج ورقة من جيبه ويقرأ) مصانع ألعاب الأطفال المبتكرة في طوكيو. مختبرات العلوم الجرثومية في جنيف. وكالة الاستخبارات المركزية الأميركية. مشروع السنوات العشر لغزو الكواكب. اللجنة الدولية لتقدير موازين التسلح. اليونسكو. هتشكوك. دار الأزياء الباريسية الكبرى. مؤسسة والت ديزني. مصانع السيارات الخاصة بالتحضير للمستقبل. مصانع تعليب الخضار والفواكه. الشركة المتحدة لصناعة الصلب. مجلات الكوميك. دار النشر الكبرى في لندن. جامعات. كنائس. جوامع. مؤسسات للعلوم البصرية، والبيولوجية. عواصم العالم جميعاً. طفل من الهند. سارقو موضة

قبعة حماتي. حماتي. ساعي البريد... سبعة عشر أفاقاً أرسلوا رسائل تهديد، وأخيراً.. أنتم... وكي أكون عادلاً.. فيما بعد أنا.

رقم ١: ولكن ذلك مستحيل.

المتهم: وهل هذا سبب استفرادي أنا؟ لأن ذلك غير مستحيل؟

رقم ٢: هل تريدنا أن نضع العالم كله، إذن، في قفص؟

المتهم: لماذا لا؟

رقم ١: ذلك صعب قليلاً.

رقم ٢: كثيراً.

المتهم: (يقلب الورقة على قفاها ويكمل القراءة) شركات التسجيل على أسطوانات، شركات التسجيل على أشرطة، خمسة وعشرون ملهى ليلياً، سيرك، حديقة عامة، اتحاد مؤلفي المسلسلات التلفزيونية، ستة متاحف زراعية، دائرة الحرب النفسية والمعنوية في عشر وزارات دفاع موزعة في خمس قارات، خطيبتي، دائرة الحجر الصحي التابعة للدولة، نقابة أساتذة علم النفس، دكان اللحام القريبة من بيتنا، وبائع الخضار وموزع الحليب ورئيس تحرير الصحيفة التي اشترك بها منذ عامين دون أن أدفع، وصاحبة البيت و...

رقم ١: كفى. ذلك يكفي حقاً.

رقم ٢: لنعد إلى الوقائع، إن كل الأسماء التي عددتها يمكن دعوتها كشهود.. بوسعهم جميعاً أن يشهدوا بأنك كنت تمتلك شيئاً حياً، وأنك - كما تعترف بنفسك - قتلته عطشاً فيما بعد. هذا فقط ما يهمنا هنا.

(الشرطي يغير وضع الحاجز، فيصبح المتهم في القفص)

المتهم: أنت تستعمل الوقائع بصورة خاطئة يا سيدي: ليس بوسعك أن تقول إن ذلك الشيء كان مخلوقاً حياً.. وليس بوسعك أن تقول إنني قتلته عطشاً.

رقم ١: حسناً ماذا تريد أن تسميه أنت؟

المتهم: لقد كان - إنه شيء مثل الحلم، والآن ليس أكثر من قبعة معرضة للتلف.

رقم ١: كان ماذا؟ حلماً؟ نبياً؟ فكرة؟ رسالة؟

المتهم: ربما.

(تعم الظلمة المكان بأجمعه فجأة، لمدة ثوان قليلة، ثم يرتكز ضوء مفاجئ على رقم ١)

رقم ١: (يقف) إن المحكمة تسحب اتهامها لكم بارتكاب جريمة قتل لعدم توفر الأدلة المتعلقة بالقاتل والمقتول وأداة الجريمة المزعومة. براءة.

(الظلام، مرة أخرى، ثانية. ثم ضوء مفاجئ على المتهم)

المتهم: إنني أرفض هذا التنصل. أرفض هذا الانسحاب القذر.

(الضوء يعم المكان).

رقم ١: (ببرود) أنت بريء. أنت حر.

المتهم: لا! لا أيها السادة! أتوسل إليكم بكل قوانين الأرض، يجب أن تجدوا طريقة ما لمحاكمتي.

رقم ١: (ببرود) نحن آسفون أيها الرجل البريء.. لقد بذلنا جهدنا ونبشنا كل حرف كتب في كل مكان. لا فائدة. إن قضيتك استباق لما عندنا، وعليك أن تنتظر.

المتهم: ولكن ذلك مستحيل أيها السادة. مستحيل.. (يقف، الضوء عليه فقط) تريدونني أن أخرج من هذا الباب مرة أخرى؟ ليس بوسعكم أن تكونوا قساة إلى هذا الحد! أرجوكم... بريء؟ أي عبء!

(الضوء في المسرح كله)

رقم ٢: (يطوي الحبل باعتناء، ويضعه ببطء في درج طاولته) نحن آسفون حقاً، ليس بوسعنا أن نخدمك. نعلن لك ذلك.

(الشرطي يتقدم، ويأخذ في جمع طرفي الحاجز مستعداً لحملهما)

المتهم: (يتمسك بالشرطي) لا. أرجوك. دقيقة واحدة، فقد نجد حلاً ما.. ليس بوسعك أن تفعل ذلك بهذه البساطة.

(الشرطي يمضي في عمله وكأنه لا يسمعه)

المتهم: (للمحكمة) دعونا نتعاون أيها السادة، لنبحث عن مخرج لهذا الموقف التعيس. إليكم تهمة أخرى أقترحها عليكم بكل احترام. الإلحاد.

رقم ١: الإلحاد؟

المتهم: أجل. الإلحاد! لقد كان هذا «الشيء» رسالة كونية، صلة وحيدة وأولى مع كون لا نعرف عنه شيئاً، وحين مات بين يدي كنت من حيث لا أدري أعرقل العناية الإلهية التي أرسلته..

رقم ١: لا. ليس من اختصاصنا منحك مثل هذا المجد.

المتهم: إن العقوبة المخصصة لمثل هذه الجريمة أكثر إثارة من الشنق، إنني أيها السادة أمنحكم فرصة رائعة.

رقم ١: ومع ذلك، فأنت رجل بريء أيها السيد... أنت رجل حر.

المتهم: يا إلهي ما أقساكم. إنني أكرهكم!

(الشرطي يرفع الحاجز بعد أن يتم تجميعه ويمضي به إلى الخارج).

رقم ١: حتى لو كنت قد فعلت ذلك الشيء الكريه، فإنك قد

دفعت إليه دفعاً، لا حيلة لك في الأمر (يخرج ورقة من جيبه ويقرأ) معامل تعليب الخضار. التلفزيون. السينما. المواصلات اللاسلكية عن طريق الأجرام الفضائية. طفل من الهند يمتلك خيطاً من القنب فقط. دار الأزياء. حماتك. خطيبتك. اللحام. بائع الـ..

المتهم: كفى! كفى!

رقم ١: هيا! اذهب إلى بيتك أيها الرجل البريء. لدينا أعمال أخرى...

المتهم: (يبكي) لا. أنتم لا تستطيعون أن تكونوا متوحشين إلى هذا الحد!

رقم ١: أنت بريء، إذن أنت حر. لماذا لا تذهب؟

المتهم: إنني أكرهكم جميعاً... ولكن ألا تستطيعون نبش قانون واحد يحلّ هذا الإشكال..؟

رقم ٢: لقد فعلنا كل ما في وسعنا يا سيدي. نقسم لك!

(تعتم جهة المتهم. رقم ١ ورقم ٢ يقفان ويسويان ملابسهما ثم يخرجان ببطء. المتهم وحده)

المتهم: (صارخاً) لحظة واحدة أيها السادة (يتجه الضوء نحوه) لحظة واحدة.. (يكملان سيرهما حتى يختفيا - المتهم يصل إلى طاولة المحكمة ويقف هناك) لحظة واحـدة. ولكن ذلك أيضاً

مستحيل. بريء! يا للحماقة! كأن البراءة تعطى!

(ينظر نحو طاولته، كأنه يرى نفسه هناك، ويشير لما يخيل إليه أنه يراه بإصبع الاتهام الخطابي)

المتهم: إنني أحكم عليك بنوع فريد من العقاب! (يتحير هنيهة، ثم لنفسه) سأفكر به فيما بعد (يعود للموقف الخطابي) لو تركته يعيش لعرفت عما لا تعرف أضعاف ما جعلك تعرف عما تعرف. تصور أيها الخائن: لقد جعلك تكتشف من جديد عالمك الذي تعرفه فكيف لو تركته يكشف لك عالمه الذي لا تعرفه؟

(نعم العتمة لثانيتين - تسمع أصوات خطواته وهو يعود إلى طاولته - ينفجر الضوء عليه وعلى «الشيء».. لحظات من الصمت - الشيء يتحرك من جديد، المتهم ينظر إليه ببرود - الشيء يواصل تحركه بصمت، ثم بعنف ووضوح كلي)

(المتهم يقترب من الشيء، ويرفعه بين يديه، لأول مرة)

المتهم: هيا بنا أيها الصديق. ليس أمامنا إلا أن نخرج معاً.

(ستار النهاية)

١٩٦٧/٤/١٣

سلسلة أعمال غسان كنفاني من منشورات الرمال

روايات

رجال في الشمس

أم سعد

ما تبقى لكم

العاشق/ برقوق نيسان/ الأعمى والأطرش

الشيء الآخر (من قتل ليلى الحايك؟)

عائد إلى حيفا

قصص قصيرة

موت سرير رقم ١٢

أرض البرتقال الحزين

عالم ليس لنا

عن الرجال والبنادق

القميص المسروق

مسرحيات

الباب

القبعة والنبي

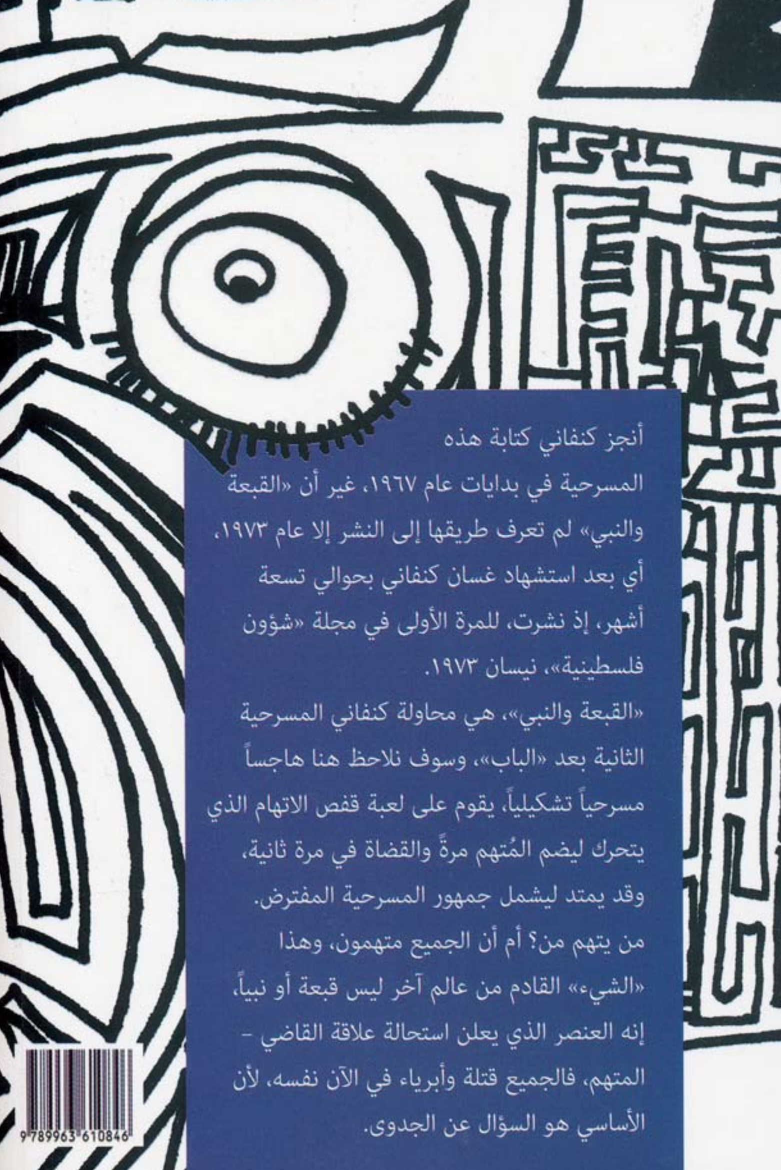
جسر إلى الأبد

دراسات

الأدب الفلسطيني المقاوم تحت الاحتلال ١٩٤٨-١٩٦٨

أدب المقاومة في فلسطين المحتلة ١٩٤٨-١٩٦٦

في الأدب الصهيوني



أنجز كنفاني كتابة هذه المسرحية في بدايات عام ١٩٦٧، غير أن «القبعة والنبي» لم تعرف طريقها إلى النشر إلا عام ١٩٧٣، أي بعد استشهاد غسان كنفاني بحوالي تسعة أشهر، إذ نشرت، للمرة الأولى في مجلة «شؤون فلسطينية»، نيسان ١٩٧٣.

«القبعة والنبي»، هي محاولة كنفاني المسرحية الثانية بعد «الباب»، وسوف نلاحظ هنا هاجساً مسرحياً تشكيلياً، يقوم على لعبة قفص الاتهام الذي يتحرك ليضم المُتهم مرةً والقضاة في مرة ثانية، وقد يمتد ليشمل جمهور المسرحية المفترض. من يتهم من؟ أم أن الجميع متهمون، وهذا «الشيء» القادم من عالم آخر ليس قبعة أو نبياً، إنه العنصر الذي يعلن استحالة علاقة القاضي - المتهم، فالجميع قتلة وأبرياء في الآن نفسه، لأن الأساسي هو السؤال عن الجدوى.

9789963610846